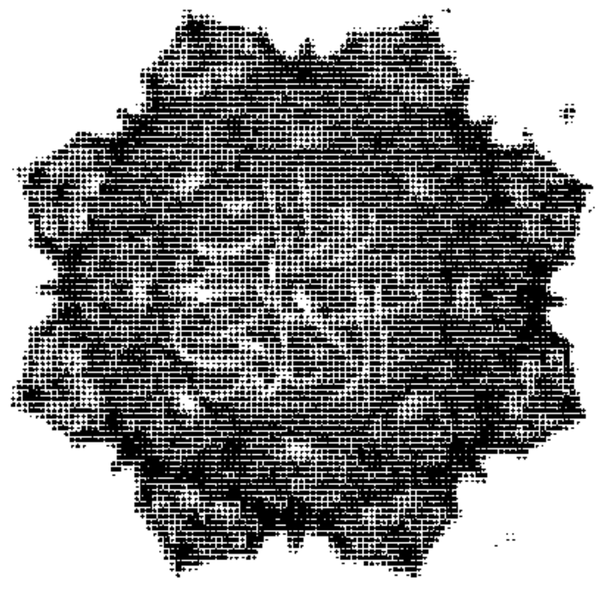

١٧ رمضان

جورجي زيدان

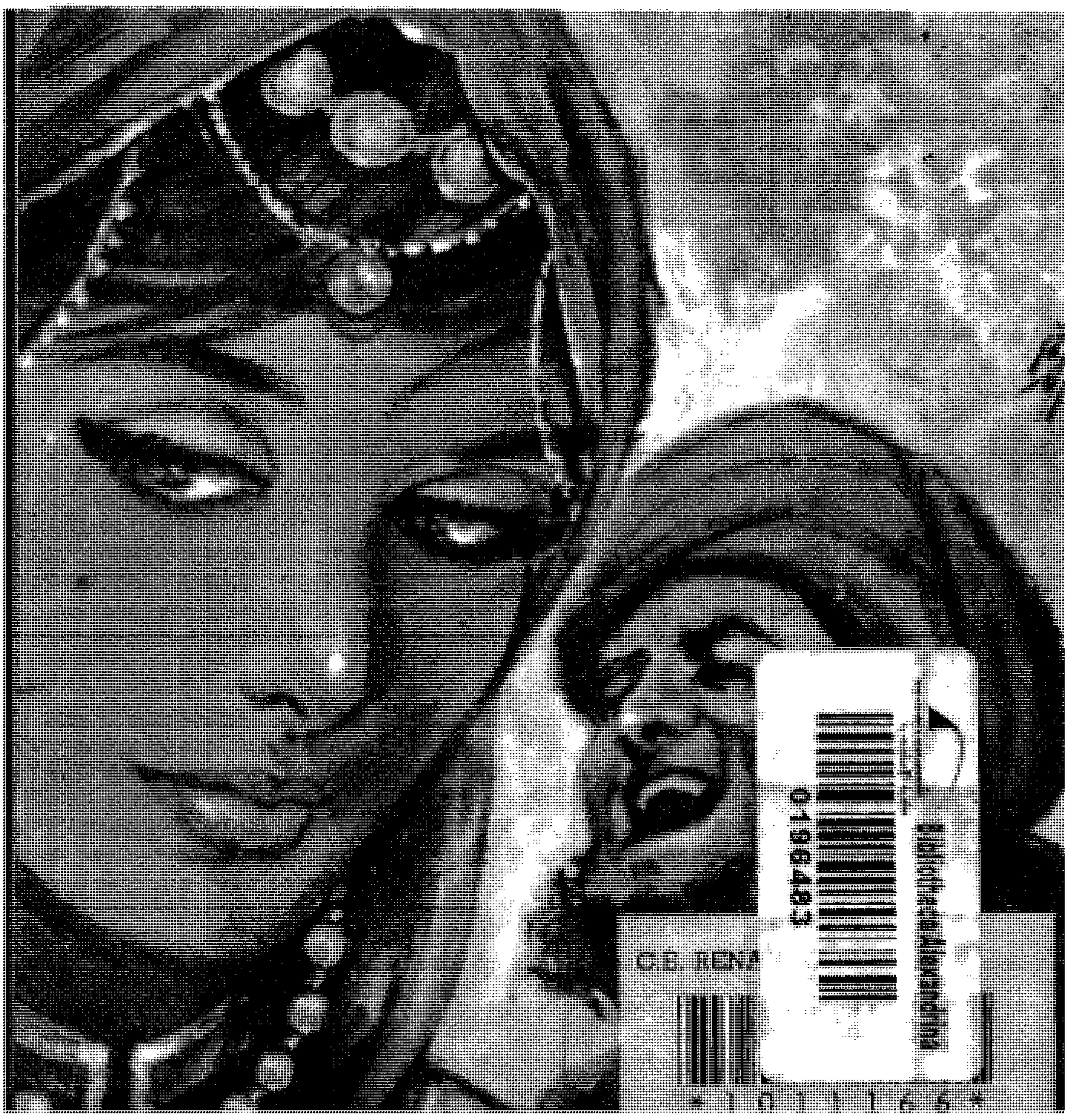

١٧ رمضان

تتضمن تفصيل مقتل الامام علي وبسط حال الخوارج
تتمة الفتنة التي حدثت بسبب مقتل الخليفة عثمان ،
متثثار بني امية بالخلافة وخروجها من أهل البيت

COMITÉ D'ÉTABLISSEMENT
R.N.U.R. FLINS
Bibliothèque
78410 AUBERGENVILLE
N° Inventaire Z.8.6.4.6.....
Cote Z.A.X.R.....85.3.14.

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

✲ على بن ابى طالب	: رابع الخلفاء الراشدين
✲ معاوية بن ابى سفيان	: اول ملوك الدولة الاموية
✲ عمرو بن العاص	: والى مصر
✲ قطام بنت عدى	: غادة الكوفة
✲ العجوز لبابة	: مربية قطام
✲ سعيد الاموى	: عاشق قطام
✲ عبد الرحمن بن ملجم	: قاتل الامام على
✲ الحسن والحسين	: ابنا على
✲ عمرو بن بكر	: المتآمر لقتل عمرو بن العاص
✲ البرك بن عبد الله التميمى	: المتآمر لقتل معاوية

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

- ✲ تاريخ ابن الأثير
- ✲ القاموس العام
- ✲ تاريخ الخميس
- ✲ السيرة الحلبية
- ✲ أسد الغابة
- ✲ مروج الذهب للمسعودى
- ✲ تاريخ المقريزى
- ✲ « ابن هشام

فذلكة تاريخية

الخوارج جماعة من رجال الامام على بن ابى طالب نقموا عليه قبوله التحكيم على أثر وقعة صفين ، وكانوا قبل ذلك فى مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم أدى الى خروج الخلافة من يده الى يد معاوية بن ابى سفيان نقضوا بيعه ونبذوا طاعته ، وطمعوا فيها لأنفسهم فبايعوا واحدا منهم يدعى عبد الله بن وهب ، وحاربوا تحت رايته زمنا

ولما صدر حكم الحكمين بخلع على وتثبيت معاوية اشتد ازر معاوية ، وبويع بالخلافة فى الشام

وكان الخوارج ما زالوا فى بدء أمرهم ، فأخذ على يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو فى ذلك جاءه الخبر بتألب الخوارج وتمردهم ، فنصح لهم بالطاعة وبين لهم انه لم يخطىء بقبول التحكيم وانه لم يقبله الا اجابة لطلبهم ، ولكنهم لم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية ، فحاربهم فى مواقع عدة أشهرها موقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من بغداد ، وقد انتصر فيها عليهم نصرا مبينا وشتت شملهم ، على انهم عادوا الى الاجتماع فى الخفاء

وفى سنة ٣٨ هـ فتح عمرو بن العاص مصر ، وقتل محمد بن ابى بكر عاملها ، وتولاها باسم معاوية . فأصبح معاوية خليفة فى مصر والشام ، وجعل مقامه دمشق . وبقى على بن أبى طالب خليفة فى العراق والجزيرة والحجاز واليمن ، وجعل مقامه الكوفة .

ثم أخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام على يبغى فتحها ليستأثر بالخلافة . فأنفذ جندا الى مكة ، وآخر الى اليمن ، وثالثا الى الجزيرة ، وظلوا يحاربون ويناوئون ولكنهم لم يبلغوا أربا حتى دخلت سنة اربعين للهجرة . فتأهب الامام على للخروج الى قتال معاوية ، فى جيش قوامه اربعون الفا من انصاره بايعوه على الفور أو الموت . وفيما هو فى ذلك فاجأه الغدر فمات مقتولا كما سترى تفصيل ذلك فى هذه الرواية

غادة الكوفة

الكوفة مدينة اسلامية ، مصرها سعد بن ابى وقاص احد كبار الصحابة ، فى السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح العراق ، وكان عمر قد اشار عليه « بان يقيم فى مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا اراد ان يقدم اليه على راحلته قدم » . فبنى الكوفة غربى الفرات على شاطىء بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة ، بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلا

وكان بناؤها فى اول امرها بالقصب ، فاصابها حريق فاستاذنوا الخليفة فى بنائها باللبن فقال : « افعلوا ، ولا يزيدن احدكم على ثلاثة ابيات ، ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة يلزمكم الدولة » . ففعلوا وجعلوا طرقها نوعين : المناهج وعرض كل منها عشرون ذراعا ، والازقة وعرض كل منها سبع اذرع . وما بين المناهج اماكن البناء وقدرها اربعون ذراعا ، والقطائع وقدرها ستون ذراعا

وكان المسجد اول شيء خطوه فيها ، فوقف فى وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم ، ثم اقيمت المبانى فيما وراء السهام ، وترك ما دونها للمسجد وساحته . وبنوا فى مقدمة المسجد ظلة او رواقا اقاموه على اساطين من رخام كان الاكاسرة قد جلبوها من اخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقا لئلا يقتحمه احد ببنيان ، وبنوا لسعد بن ابى وقاص قصرا بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد

. وقد زاد عمران الكوفة حين اتخذها الامام على مقرا له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ هـ اذ تقاطر اليها المسلمون من جميع الانحاء ، وتكاثرت فيها الابنية وعمرت الاسواق وانشئت حولها الحدائق والبساتين مما يلى بحيراتها

وكان فى ضاحية الكوفة على شاطىء البحيرة حديقة من نخيل ، حولها سور من جذوع النخل يحيط بها الا من جهة البحيرة . وفى وسط الحديقة بيت مبنى من اللبن ، يدل جمال بنائه على ان سكانه من اهل اليسار ، وقد يخيل اليك اذا دخلت حديقته انه مسكن بعض الامراء ذوى الخدم والحشم ، لما يرى بين نخيلها من آثار المعالف والاوتاد والسلاسل والقيود . ولتاكل

جذوع بعض النخيل من كثرة شد الامراس اليها وتعود الخيل تقشيرها وهى مشدودة اليها

ففى ليلة من اوائل السنة الاربعين للهجرة ، والوقت خريف ، وقد نضج الثمر على نخيله وليس من يقطفه ، فتساقط بعضه على الارض وليس من من يلتقطه . كان القمر بدرا وقد اطل من وراء الاكام فارسل ظلال النخيل مستطيلة متقاطعة ، وكان الجو هادئا والسكوت سائدا لبعد المكان عن المدينة وضوضائها ، فلم يكن يسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء البحيرة يتخلله صرير الصراصير وقرقزة القر . وربما هب النسيم فاسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراه من آثار الانس ودلائل الابهة

وهناك فى المنزل المؤلف من ثلاث غرف متصل بعضها ببعض ، وقد فرشت ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز ، وضعت فى احداها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز ، ووضع فى بعض جوانبها مصباح ضعيف النور ، وجلست على احدى الوسائد فتاة فى مقتبل العمر اشرق وجهها بماء الشباب ، وقد حلت شعرها الاسود فارسلته على كتفيها فحجب بعض جبينها ، وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنه زاد عينيها كحلا واشراقا . ولكن عينيها الدعجاوين البراقتين قد غشيهما الدمع فاخذ ينحدر على وجنتين محمرتين بينهما انف دقيق مستقيم تحته فم صغير . فاذا ازداد انسكاب الدمع تلقته باطراف جدائلها او باحد كميها . وكانت لابسة جلبابا اسود زادها جمالا وفتنة . وكان هذه الفادة استانست بوحدتها فاطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا حسيب فاخذت تندب فقيدين عزيزين قتلا فى يوم واحد

تلك هى « قطام بنت شحنة بن عدى » من قبيلة الرباب ، فتاة الكوفة الفتانة التى ذاع صيتها فى الآفاق وسمع بجمالها القاصى والدانى حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب امثالهم ، وشخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب ، فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هما ولم تذق غما حتى بليت بقتل ابيها واخيها معا فى وقعة النهروان ، اذ كانا من جملة الخوارج الذين قاموا على الامام على لقبوله التحكيم فانضموا الى من نقض بيعته وحاربوا فى جملة من حاربه

وكانت قطام ثابتة الجاش شديدة الميل الى الانتقام ذات حيلة ودهاء ، ما انفكت منذ قتل ابيها واخيها وهى تندبهما وتلتمس الانتقام لهما . ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقر الامام على ومجتمع انصاره وشيعته . فاقامت بمنزلها هذا فى ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربى فى اهلها منذ صباه ، وقد هجرها بعد ان بليت بمصيبتها جميع

الخدم والاعوان ما عداه . وكانت ترتاح الى بث شكواها له ، وكان هو يخفف عنها ويعدها بنيل المرام

وفي اصيل ذلك اليوم-كانت قد انفذته ليستقدم لها عجوزا من مولدات الكوفة ، كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة اظفارها وهي تحن اليها حنينها الى امها ، فلما طال غيابه وسدل الليل نقابا ولم يعد ، شغلت بذلك عن احزانها وهواجسها وهي وحيدة في هذا البيت . ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت اباها واخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان ، فاجفلت ولكنها استانست به فوقفت واسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة ، شديد السواد ، خفيف العضل ، سريع الحركة ، جاحظ العينين ، افطس الانف ، عظيم الوجنتين ، بارز الأسنان يزيدها بروزا تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا . وكان يتفانى في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام . فقالت : « ما الذي اخرك يا ريحان وانت تعلم اني وحيدة هنا . اين العجوز لبابة ؟ »

قال : « انها قادمة على اثري »

قالت : « وما سبب غيابك حتى الآن ؟ »

قال : « كنت في انتظارها وهي تخاطب شابا وتجادله . . . »

قالت : « ومن هو هذا الشاب ؟ »

قال : « لا ادري . . وهذه هي قد اقبلت وستقص عليك الخبر مفصلا »

وما اتم كلامه حتى دخلت العجوز تتوكأ على عكازها وقد احدودب ظهرها ونال منها الكبر فزادها قصرا ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب ، وكانت عمصاء العينين غائرة الفم لخلوه من الأسنان ، مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود تجره وراءها لطوله وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها واخذت تخفف عنها وتقول : « لا بأس عليك يا ابنتي ، اعذريني لابطائي في الحضور »

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول : « ما الذي يشغلك عني يا خالة وانت تعلمين ان ليس لي معز في احزاني سواك »

قالت : « هوني عليك يا قطام واستريحي ، فقد جئتك بالفرج باذن الله »

قالت : « من اين ياتيني الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام ؟ »

قالت ذلك وحرقت اسنانها وهى تتشاغل بجمع شعرها وارساله وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وارسلته على كتفيها فبانت اساورها ودمالجها حول معصمها الممتلىء ونظرت الى العجوز كانها تسالها الايضاح

فضحكت العجوز وهى تنظر اليها ، ثم كفت عن ضحكها فجاة وكانها تذكرت امرا محزنا فاستاءت قطام من ضحكها وهى تبكى وقالت : « ما بالك تضحكين ؟ اتهزئين بكلامى . انى والله لا اقنع بما دون الانتقام »

فامسكتها العجوز بيدها واقعدتها على الوسادة وجلست الى جانبها ، ونظرت الى ريحان نظرة فهم منها انها تريد خروجه لتخلو الى قطام. فخرج

فلبثت قطام تنتظر ما تقوله العجوز . فاذا بها تظل كانها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت : « وماذا تريدين يا قطام ؟ »

قالت : « اريد ان آثار لابى واخى اللذين قتلهما على ظلما ، ولا بد لى من الانتقام »

قالت العجوز : « ما قولك فى انى وجدت لك من ياخذ لك بثارك ؟ »

قالت : « من هو ؟ قولى »

قالت : « اصبرى ولا تكونى لجوجة . اتعرفين سعيدا ؟ »

قالت : « واى سعيد ؟ » . قالت : « سعيد الاموى الشاب الجميل الواقع فى هواك »

قالت : « دعينا من الحب والغرام وحدثينى عن الانتقام »

قالت : « سبحان الله ! اجيبينى عن سؤالى . الا تعرفين هذا الشاب المغرم بك ، المفتون بسواد عينيك ؟ »

فتململت وقالت : « نعم اعرفه ، وماذا فى معرفته ؟ . بالله عليك لاتذكرى الغرام ، انى لا اشعر بعاطفة الحب ، ولايهمنى احبنى الناس ام ابغضونى »

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت : « يا للعجب ! . ما اكثر لجاجتك . اذا كنت تعرفين سعيدا هذا فهل تحبينه ؟ »

فاجابت على الفور : « لا . لا . لا احبه ، ولا احب احدا ان قلبى فى شاغل عن الحب بالبغض . انى ابغض بعض الناس ولا احب احدا »

قالت : « اذا كان لابد من الانتقام فيجب ان تحبى سعيدا »

قالت : « كيف احبه وليس فى قلبى موضع لغير البغض والحقد . انى حاقدة ناقمة »

قالت : « انا اعلم ذلك ، ولكن احبى سعيدا ولو الى حين وهو ينتقم لك »

فبغنت قطام ، ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس فيها لتتحقق انها تجد

ولا تهزل ، فلما آنست الجد فى لهجتها قالت : « هل تقولين حقا ؟. وهل سعيد يرضى أن يركب هذا المركب الخشن ؟ »

قالت : « انى أجعله يركبه ، فان لم يكن أهـلا له فهو ليس أهلا لحبـك . ما رايك ؟ »

فصمتت هنيهة ثم قالت : « أحبـه ؟ .. نعم أحبه اذا كان الامر كذلك ولو الى اجل قريب . ولكننى لا اظنه أهلا لهذا العمل ، بل لا أحسبه يقدم عليه . ولكن قولى لى هل تتكلمين من عند نفسك أم سمعت ذلك منه ؟ »

فاعتدلت العجوز فى مجلسها ، ونظرت الى قطام وقالت : « اعلمى ياحبيبتى ان سعيدا هذا قد علق بك واحبك منذ بضعة أعوام ، ولكنه لم يكن يتجرأ على مخاطبـة ابيك فى الامر ، لأن اباك كان يومئـذ فى جمـلة القائمين بنصرة على . وسعيد كما تعلمين أموى . اى انه ممن نقموا على (على) وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا خطبك من أبيك يومئذ فلن ينال غير الفشل . أما بعد ان خرج ابوك على خلافة على ، ونبذ طاعته فى جملة من خرجوا عليه بعد التحكيم ، فقد حدثت سعيدا نفسه بأن يخطبك ، فكلمنى فى شأنك مرارا . ولكن أباك كان مشغولا بمحاربة على وشيعته فلم اتمكن من التوسط له . فلما علم بقتله وقتـل اخيك . واحسرتاه عليهما (وتنهدت وهى تتظاهر بمسح دموعها) عاد الى مخاطبتى فى ذلك . وقد كنت أسوفه لعلمى بحزنك الشديد ، ولكنه لم يزل يتردد على ويستنهضنى واعدا بأن يبذل كل مرتخص وغال فى سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل ، الى ان جاءنى اليوم واعاد الكرة والح كثيرا ، فلمحت له الى انه اذا طمع فى رضاك ، فلاسبيل الى ذلك سوى الانتقام لأبيك واخيك ، وقد آنست منه ارتياحا فاطلت الـكلام معه وريحان فى انتظارى ، وهذا هو سبب غيابى عنك . فما قولك ؟ »

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت : « وهل ترينـه يفى بالعهد ، أو يستطيع قتل على بن ابى طالب . انى لا اقبـل مهرا اقل من ذلك »

قالت : « اظنه يقبل ، وارى ان استقدمه اليك ، ونظرا الى ما اعهـده فيك من المهارة لا اشك فى انه يأخذ على نفسه العهد ان يقوم بكل ما تريدينه ، ولا سيما اذا اظهرت له ميلا ، وذكرت له انك تحبينه ، وتفننت فى اساليب الدلال والتمنع ؛ مشترطة انك لا تتزوجين منه الا بعد قتل على . فاذا عاهدك على هذا صبرنا حتى يقتله ، فاذا لم يفعل ، أو لقى حتفه ، كان دمه على راسـه والسلام . ما قولك ؟ »

فاشرق وجه قطام وارتاحت الى هـذا الراى وقالت : « لاباس بما اشرت به . استقدميه لنرى ما يكون . ولكن لاتنسى ان تذكرى له انى لم اقبل بعد، وبالغى فى وصف تمنعى ، وعلى بعدئذ ان اكمل الحيلة »

فاغرقت العجوز فى ضحكها وقالت : « سامحك الله يا قطام ، الا تزالين تحسبيننى ساذجة ، وهل تجهلين اين قضيت هذه الشيبة ؟ انى قضيت عمرى فى مثل هذه الشؤون ، فكم زوجت من رجال ، وكم اقنعت بالزواج نساء كان قبولهن اياه ضربا من المحال . لاتخافى على ، كما انى لا اخاف عليك» . قالت ذلك ونادت ريحان فاسرع اليها . فقالت له : « هل تعرف الشاب الذى كان عندى الليلة ؟ »

قال : « نعم أعرفه » . قالت : « سر اليه ، انه ما زال فى المنزل حيث رايتنا الليلة ، وقل له : (ان خالتك لبابة تدعوك اليها) . . »

قال : « واذا ابى ، فماذا اقول له ؟ »

قالت : « لا اخاله يابى ، بل سيسبقك فى المجيء ، فاذهب وادعه » . قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

▭

كان سعيد شابا امويا فى حوالى الثلاثين من عمره ، توفى ابوه وهو طفل فكفله جده وقضى صباه وشبابه مع جده فى منزل الخليفة عثمان وكانا من اخلص مريديه . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده فى مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت موقعة الجمل كان سعيد فى جملة رجال ام المؤمنين ، وظل جده مقيما بمكة لشيخوخته . فلما فشل جند ام المؤمنين وعادت الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لموقعة صفين

ولكنه كان يتردد على الكوفة ، وكان يسمع بقطام هذه وجمالها ، وقد رآها مرارا وهى بالخمار فوقعت من نفسه موقعا عظيما ولكنه لم يجرؤ على التقدم لخطبتها ، لان اباها كان قبل تحكيم الحكمين من شيعة الامام على ، فلم يكن ليزوج ابنته باموى يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام على بعد التحكيم ، استبشر سعيد وامل نيل مرامه ، ولكنه لم يتمكن من السعى فى طلبها الا بعد مقتل ابيها واخيها . فجاء الى لبابة ووسطها فى الامر ، فاستخدمت هذه كل دهائها فى اغرائه بقتل على ، وتركت بقية الحيلة لقطام لعلمها انها لاتقل عنها دهاء ومكرا

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار ، وبخاصة فيما يتعلق بدهاء العجائز ، ولكنه كان جميل الصورة معجبا بجماله وقد اعمى غرامه بصيرته فلم يعد يرى غير قطام او يحلم الا بها . فلما جاء العجوز فى تلك الليلة وخاطبها فى شانها واظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما فى وسعه من الوعود فى سبيل ارضائها ، واغرى العجوز بكل مايرضيها من المال والحلى فوعدته ان تسعى فى ترغيبها . ومضت وتركته يتقلب على جمر الانتظار

فلمـا جاءه العبـد يدعوه اليها خفق قلبـه وهرول مسرعا يتعثر باذياله فاخترق اسواق الكوفة وهو لايرى شيئا مما فيها لاضطرابه وتهيبه اجتماعه بقطام منى قلبه وغاية مرامه ، فكان اذا تصور رضـاءها اشرق وجهه وطـار فرحا . ثم يعترض تصوره ما آنسه فى حديث العجوز من ان الفتـاة تتمنع ، ويتذكر مابدرمنه من الوعد بالانتقام، فتنقبض نفسه ويضطرب لهول الموقف. على ان هيامه كان يهون عليه كل عسير ويصور له المحال ممكنا . فخيل اليه ان قطام اذا رات جماله وتحققت ما هو فيه من الوجد لاتلبث ان تقع فى هواه وتغضى عن امر الانتقام

وفى ذلك ومثله قطع طريقه ، وريحان يخطو امامه خطواته المتباعدة لطول ساقيه ويحاول الابطاء فى مسيره لئلا يسبق سعيدا ولـكنه ينسى ويعود الى الاسراع ، فاذا تنبه الى انه قد سبقه عاد يمشى الهوينى حتى يلحق به . كل هذا وسعيد فى شغل باحلامه وامانيه

ولماجاوزا المدينة، آنساسكوتا لايسمع فيه الا صوت الحصى تحت اقدامهما ، والـكوفة كثيرة الحصى والرمال ، حتى وصـلا الى باب البسـتان ودخلا بين النخيل ، فقال ريحان : « امهلنى يامولاى ريثما ادخل المنزل ثم اعود اليك »

فظل سعيد يتمشى بين النخيل ، وهو يتشاغل برؤية ظلالها ، وبالاستماع لنقيق الضفادع على شاطىء البحيرة ، بينما يهيىء نفسه لمقابلة قطام ، فيصلح عمامته ويمشط شاربيه ولحيته ، وينفض جبته . ويصلح وضعها

ولما طال انتظاره قلق وحدثته نفسه بان يستـاذن فى الدخول الى الدار . وفيما هو يهم بذلك سمع حركة ومشيا ، وبعد هنيهة ظهر له نور عند الباب وسمع ريحان يناديه ، فهرول وقلبـه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة ، فعثرت رجله بحبل من الياف النخيل كان مشدودا الى جذع نخلة ، فكاد يقع ، ثم تقدم نحو باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبـة ، ومشت امامه وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت به حجرة قطـام ، ودعته للجلوس على وسادة وجلست هى على وسادة اخرى ، وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطام هناك ، فلما لم يرها قلق ، وزاد فى قلقه سكوت لبابة عن الحديث وجودها . فقال : « مالى اراك ساكتة ياخالة ، الم ترسلى الى بالمجىء ؟ » . قالت : « بلى »

قال : « واين قطام ؟ » . فتنهدت وقالت : « هى هنا فى الغرفة الاخرى ، وسنذهب اليها بعد قليل »

قال : « اراك فى قلق . ما الذى جرى . قولى »

قالت : « لم يحدث شيء » . وتظاهرت بانها تكتم خبرا ، فقال : « ولكنى اراك كئيبة ، اخبرينى ، لقد نفد صبرى »

قالت : « لاتقلق ياولدى ، ليس هناك مايدعو الى القلق . غير انى مللت من

استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها ، فلم ار منهـا الا البكاء والنحيب ولم اسـمع الا قولها : (الانتقام . الانتقام) . وكل من يخاطبها فى غير هـذا الموضوع لايسمع منها جوابا »

قال : « ألم تذكرى لها شيئا من حديثى معك ؟ »

قالت : « كيف لا ، اننى لو لم اذكر لها اسمك مشفوعا بوعدك بالانتقام لمـا اجابتنى » . ثم ادنت فمها من اذنه وقالت : « ولكننى آنست من خلال تمنعها انها ترتاح الى ذكر اسمك ، واظنها تحبك ولكنها مأخوذة شغلهـا الانتقام عن الحب ، ولذلك سرت لما اخبرتها بوعدك وان لم تصـدق قولى كأنها تحسبنى اعبث بها ، اولعلها استبعدت ذلك منك اوخشيت رجوعك فيه لجهلها ما انت مفطور عليه من الحمية وكرم الاخلاق »

قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده . ثم شغلت نفسها بالسعال ومسح آماقها مما يتحلب فيها من الدمع المتواصل من اثر الشيخوخة ، وصبرت لترى مايبدو منه قبل اتمام الحديث

اما هو فأثر قولها فيه وهاج ما فى قلبه فقال لها : « أننى لا الوم قطام فانها لاتعرفنى بعد ، فهى معذورة اذا اساءت الظن بى . ولكن اين هى؟ ارينى اياها فاؤكد لها وعدى فتعلم من هو سعيد » . قالت : « هى هنا »

▭

واخذت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى حجرة تجلس فيهـا قطام على اريكة وهى تبكى وشعرها مخلول . فلمـا رأت النور يقترب منهـا اسرعت فضمت شعرها وارسلته الى ظهرها وغطت راسها بنقاب اسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهى تقول : « خففى عنك يا قطـام وارفقى بنفسك واشفقى على شبابك كفاك بكاء ونحيبا . انهضى فسلمى على محبك سعيد . . »

فقطعت قطام كلامها قائلة : « ألم اقل لك لاتذكرى الحب والغرام بل اذكرى القتل والانتقام . انى لا احب الا الانتقام ، ومن ينتقم لي فهو الخليق بأن اعطيه قلبى . ولكن . . . »

فتقدم سعيد وقد اصبح بعد رؤية قطام على تلك الحال لايرى شيئا غيرها ولا يبغى الا رضاها وقد شق عليه قولها : (ولكن) لما ينطوى عليه من ضعف ثقتها به ، فقال لها : « ألا ترضين يا قطام ان اكون انا المنتقم لك ؟ »

قالت وهى تظهر عدم الاكتراث : « لا . لا ارضى ان تعرض نفسك لهـذا الامر من اجلى ، فانى اولى منك بركوب هـذا المركب الخشن » . ثم رفعت يدها واشارت بسبابتها الى صدرها وقالت بصوت تتخلله غصة البكاء : « انا

اقتل قتلة ابى واخى بيدى . انا اقتلهم . انا اقتل عليا وان كنت فتاة . ان حب الانتقـام يقوينى ويشجعنى . ولا حاجة بى الى تعريض سـواى لخطر القتل . انك شاب لايهمك من امر على شيء فكيف تتصـدى لقتله من اجل غيرك ، ذلك لايكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادرا عن شهامة وغيرة حقيقيتين، فازداد رغبة فى الاقدام على ذلك العمل . وقال لها : « كيف تقدمين ياملبحة على هذا الأمر وانا بين يديك . لعلك لا ترين فى الكفاءة . وكيف حسبت اننى لا يعنينى قتل على ، ألا تعلمين ان بنى امية يطالبونه جميعا بدم عثمان ؟ فاذا قتلته فانى ارضى قومى فضلا عن ارضاء قطام . ان بذل النفس يسير فى سبيل ارضائك . واذا اذنت لى ان ادعوك حبيبتى فكل شيء هين »

فلما تحققت قطـام وقوعه فى الشرك ، ارادت ان تتمكن من عهـده بصك تستكتبه اياه ، فأمسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه ، فانكشف معصمها عن الاساور والدمالج ، وبانت عيناها وقد ذبلتا من البكاء فازدادتا جمالا، ورنت اليه وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . أما هو فلا تسل عن حاله بعد تلك النظرة ، فثارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط فى الامر . فتظاهرت لبابة بأنها تساعده فى غرضه وقالت لها : « ألم يكفك ماقاله هذا الشهم ؟ ألم أقل لك ان وعده صدق ، وفضلا عن ارضائك بقتل على فهو يرضى عشيرته واهله ايضا ؟. اعلمى ياقطام أنه لابد من رجل يقتل هذا الخليفة، ومن يسبق الى قتله يكن صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم »

فقطعت قطام كلام العجوز قائلة : « انا أعلم انه مقتول لامحالة ، فان لم يبق من الرجال من يفعل ذلك فعلته أنا بيدى . انظرى الى هذه الحلى فى معصمى واذنى ، انى لم انزعها ليس لأنى لم احزن على ابى واخى ، بل لانى واثقـة من الانتقام لهما ، ومتى اخذت بالثار فقـد احييت القتيلين فكيف احزن ؟. اما ما قاله سعيد فمروءة منه ، ولكن الانسان ياخالة عرضة للتردد فلعل سعيدا اذا خرج من عنـدنا يرى رايا آخر ، او يتهيب الامر فيرجع عن الوعد . فانا لا اريد ان اقيده بعهد أرى انه ربما عاد فندم عليه. ولست أقول هذا استهانة بجرأته ومروءته ، ولا استصعابا لقتل على ، فان قتله من ايسر الامور، ولكنى اخشى ان يكون تقيد سعيد بهذا العهد على غير رغبته »

هم سعيد بأن يجيب قطام ليؤكد لها صـدق وعده ، فأوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت : « اسمحى لى يا قطام بكلمة اقولها لك. انت لاتعرفين سعيدا بعد ، ولكننى اعرفه واعرف صدقه ، وانا اسألك بالنيابة عنه : هل تريدين ان يكتب لك عهدا بأنه يفعل كل ما قاله لك ؟ »

فلما سمع سعيد ذكر كتابة العهد تهيب وعظم الامر عليه ، وكانه صحا من سكره لحظة تبين فيها خطر الامر ، على انه ما لبث ان عاد الى سكرة الغرام ، ولا سيما بعد ما سمعه من كلام العجوز الدال على ثقتها به

اما قطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد ، فلم يفتها ماجال فى خاطره ساعتئذ من الندم وهو يحاول التظاهر بغير ذلك . وارادت ان تحمله على كتابة العهد فقالت للعجوز : « اراك اقمت نفسك نائبة عنه فى امر لاتصح النيابة فيه ، ولعله غير راض به ، وفى سكوته دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ، ولا تعرضى سعيدا للخطر وانت تعلمين ما له من المنزلة فى قلبى ، وان اكن قلما رايته ، فافضل ان اعرض نفسى للخطر ولا اعرضه »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية فى راسه ، فنهض وقال لها : « اتحسبين سكوتى يا قطام عن تردد او خوف ؟ . لا وحبك ، فما انا ممن يضنون بالنفس فى سبيل الحب ، وقد اكون ترددت فى بادىء الراى . واما بعد ان علمت بما لى عندك من المنزلة فانى اكتب العهد ولا ارضى الا بكتابته . هاتوا رقا ومدادا » . فنهضت العجوز مسرعة لاحضار الرق والقلم ، وكانت قد اعدت كل شىء قبل مجيئه

وانتهز سعيد فرصة غيابها وازاح مقعده واصلحه بحيث يواجه قطام . اما هى فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت يتخلله الدلال : « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبى ، ما لنا وللصكوك الا يكفينا القول ؟ »

فما آنس سعيد منها هذا التقرب وسمع قولها : « حبيبى » حتى اخذ يبثها حبه وغرامه وتفانيه فى سبيلها ، وطابت له تلك الخلوة القصيرة وانتشى بمبادلتها اياه عواطف الحب ، واعتقد انه اسعد انسان على وجه الارض بفوزه بحبها له . غير عالم بان قصدها لم يكن سوى اغرائه بقتل على ، وقد اضمرت انه اذا فشل فى مهمته فلن تاسف عليه اذا قتل . وارادت ان يكتب الصك حتى لا يرجع عن وعده

وادركت العجوز ان فى ابطائها وسيلة لاتاحة الفرصة لقطام كى تتمكن من اغرائه ، فابطات لغير داع ، ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ايل فيه مداد اسود . فلما رآها سعيد ، ورأى الصك فى يدها عاوده الخوف ، وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ، ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده على قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول فى نفسه : « ما اسعدنى بهذا اللقاء ، وما اجمل هذا الحب لولا هذه الشروط » . ولم تترك له قطام فرصة للتردد فقالت للعجوز : « لمن اتيت بهذه الادوات يا خالة ؟ اما زلت تصرين على ان يكتب سعيد عهده ؟ لا . لا اظنه يكتبه » . وابتسمت وهى ترنو اليه ، ثم قالت : « وكانى به ندم على ما فرط منه لا عن جبن او خوف لا سمح الله ، ولكنه راى قطام

لا تستحق هذه العناية ، واراه يقول فى سره : (امن اجل امراة اقتحم مثل هذا الخطر) . » . قالت ذلك ونظرت اليه نظر المحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى دلالها نسى كل خطر ، ولم ير له مخرجا من من خجله الا بالمبادرة الى تناول الرق ، فتناوله من يد لبابة وامسك القلم وقد اخذ منه الهيام ماخذا عظيما حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح فى يدها ، فكتب ويده ترتعش ولكنه يتجلد لئلا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفا واليك نص كتابه :

« انا سعيد بن . . الأموى اعاهد قطام بنت شحنة على قتل على بن ابى طالب مهرا لزواجى بهـا ، فاذا لم افعـل لم اكن كفؤا لها ، وعلى عهد الله وميثاقه كتبه سعيد الأموى »

▭

وما فرغ سعيد من كتابة العهد حتى دفعه الى قطام وهو فخور بما فعل ، ليريها انه ليس جبانا كما ظنته ، ولكنه لم يكد يدفعه اليها حتى شعر بالخطر الذى عرض نفسه له . على انه لم يتبين الخطر جيدا لمـا حال بينه وبين عقله من غيابة الوجد والهيام

أما قطام فتناولت الرق وقرأته المـاما ، ثم نظرت الى سعيد وقالت : « يظهر انك كتبت العهد حقيقة ، اليس عارا على قطام أن تأخذ منك صكا على عهد عاهدتها عليه فى مثل هذا الموقف ، كأنك حملت كلامى على محمل الجد ، وقد قلت لك الآن : (انى لا ابالى من يقتـل عليـا ، وانه اذا لم يقتله احد فسأقتله انا) . اما وقد كتبته فانى احفظه عندى تذكارا لهذه الليـلة التى اعدها احسن ليالى العمر . . وارجوان نجتمع قريبا لنيل المرام » . قالت ذلك وفى صوتها رنة الدلال .

فصدق سعيد كلامها واطمأن قلبه ، ولكنه علم بانه لا ينال قطام الا بعد قتل الامام على بن ابى طالب فعاد الأمر الى خطورته ، فانقبضت نفسه وأراد ان ينفرد بنفسه فاستأذن بالخروج . فقالت له قطام : « امكث عندنا . . أو اذهب لعلك تهتدى الى سبيل يقرب جمعنا الدائم » . قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه ، ثم تأوهت وودعته ، فخرج سعيد ولبابة تشيعه ، فرأيا ريحانا لايزال ساهرا فى الحديقة يطوف حول المنزل خوفا من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له : « انى اهنئك برضاء هـذه الغادة فقد نلت الليلة ما طالما تلهف عليه اهل الكوفة بل سائر اهل العراق ، ومن الغريب انها كانت مع فرط حزنها لاتنظر اليك الا وهى تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلا . واما العهد الذى كتبت فليس من الاهمية فى شىء . فهب انك

صادفت خطرا فان قطـام لا ترضى أن تتعرض له » . فودعها ومشى يتعثر بأذياله ، وكأنه غادر قلبه عند قطام . فلما انفرد عادت اليه هواجسه فتصور خطورة الامر الذى اقدم عليه . ولما لم يبق له حيلة فى الرجوع عن عهده جعل ينتحل لنفسه أعذارا تخفف قلقه وتحسن له ارتكاب ذلك المنكر. فجيل اليه أنه اذا قتل عليا فانه ينتقم لسائر بنى امية ويفاخرهم جميعا بما لم يستطعه أحد منهم . فينال حظوة فى عينى معاوية فضلا عن تمتعه بقطام . ولما تصور قربه منها اختلج قلبه فى صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو فى هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومر بجامعها القائم فى وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئا والقمر منيرا فرأى ما يحدق بمنزل الامام على من الابنية والخيام بمن فيها من كبار بنى هاشم من شيعته. وهو يعرف منهم جماعة صناديد لا يهابون الموت . فخارت قواه وكبر عليه الامر وظل فى طريقه الى منزله يفكر فى حيلة ينال بها ما يريد

▭

وكان منزله فى سوق من اسواق الكوفة فوصل اليه وهو يظن نفسه بعيدا عنه ، وانما نبهه جعجعة جمل رابض فى فنائه فظنه جمله وقد عهده فى مأواه قبل ان يغادر المنزل . فدخل الفناء فرأى جمالا وأناسا كأنهم قادمون من سفر فبغت . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يلقى عليه السلام حتى عرف أنه من رجال جده ابى رحاب فذهل ولم يرد التحية وقال له : « ما وراءك ياعبد الله ما الذى جاء بكم ؟ »

قال : « اننا قادمون من عند جدك مولانا ابى رحاب »

قال : « وما الذى حملكم على المجىء ؟ »

قال : « جئناك فى مهمة عاجلة »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « ان ابا رحاب وقد شاخ ووهن عظمه بعثنا يستقدمك اليه »

فذهل وصاح قائلا : « وما الذى اصابه . أمريض هو ؟ »

قال : « مرض الشيخوخة فقط ولكنه مشتاق لرؤيتك وقد أمرنا ان نسرع بالمجىء بك اليه »

قال : « وأين يكون هو الآن ؟ »

قال : « فى مكة »

قال : « أأذهب الى مكة ، »

قال : « ذلك ما أمرنا به فافعل مابدا لك »

فلبث مدة صامتا يفكر ثم مشى وهو يقول : « لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » . وصار عبد الله فى اثره حتى دخلا المنزل . ثم التفت سعيد وهو ينزع عبـــاءته وقال : « لابد من امر ذى بال اقلق جدى فدعانى اليه فهـــل تعرفه ؟ »

قال : « لا اخاله دعاك الا ليراك قبل حلول اجله لأنه شـــاخ وضعف وانت تعلم حبه لك وأن ليس له سواك »

قال : « لاحيلة لنا فى الامر فلنبت الليلة ونصبح مسافرين » . وقضى ليلته يفكر فى قطام وسفره

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله ورفاقه جمالهم وهموا بالمسير، فراى سعيد ان يودع قطام قبل السفر فاستمهل رفاقه وسار يلتمس منزلها وهو فى لباس السفر . فلما اشرف على المنزل تذكر ليلته امس فلم يضطرب لقلقه على جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه . فدخل المنزل فلقى ريحانا فسأله عن قطام . فقال : « انها خرجت فى أمر وسوف تعود »

فقال : « الى اين ذهبت ؟ »

قال : « لا ادرى »

فشغل بال سعيد لخروجها فى الصباح ، وهو لايرى مايدعو فتاة مثلها الى الخروج ، فدبت الغيرة فى قلبه وقال : « وهل ذهبت وحدها ؟ »

قال : « مع لبابة »

قال : « اتظنها تبطىء كثيرا ؟ »

قال : « لا ادرى وربما بقيت الى المساء أو الى الغد اذ يخيل الى انها ذهبت الى بعض اهلها خارج الكوفة »

دار الحديث بينهما وسعيـــد يتردد بين أن ينتظر عودتها وبين أن يسير . وتمنى لو يعلم مكانها ليذهب اليها فيودعها ويزيل شيئا من غيرته عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لانتظر ولـكنه خاف أن يطول غيابها اياما . فنوى المسير وقال لريحان : « اقرىء قطام السلام عند رجوعها ، واذكر لها انى شاخص الى مكة لأمر عاجل وقد جئت لوداعها فلم اجدها . وساعود قريبا باذن الله »

وخرج الى رفاقه وساروا قاصـــدين الى مكة وقلبه فى الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه دون أن يرى قطام . ولـكنه التمس عذرا لنفسه ما شغله من أمر جده

أبو رحاب

وكان ابو رحاب جد سعيد شيخا طاعنا فى السن . ربى سعيدا فى حجره بعد موت أبيه ، وكلاهما على دعوة بنى امية فى المطالبة بدم عثمان . وكان غرضهما الانتقام لعثمان لانهما اقاما زمنا طويلا فى منزله . وكان ابو رحاب على حبه لعثمان غير غافل عن أخطائه التى دعت الناس الى اضطهاده ، وكثيرا ماحثه على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ له الا قليلا . وعلم ابو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوى الاغراض كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان ابو رحاب وسعيد فى جملة المطالبين بدمه ، ولكنهما عندما عادا من وقعة الجمل قعد ابو رحاب عن المطالبة ، لانه تحقق ان اصحاب تلك الوقعة انما خاربوا عليا طمعا فى الملك لا غيرة على عثمان

واقام لاجليس له بمكة الا سعيد . وكان سعيد ينوى الانضمام الى جند معاوية فى وقعة صفين فمنعه جده . وكان ابو رحاب يعلم ان سعيدا يحب قطام حبا شديدا وانه سباع للزواج بها . ولذا كان يأذن له فى الذهاب الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة واحس ابو رحاب بضعفه يتزايد ، فأراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصى له بوصية لها علاقة كبرى بشؤون حياته وربما غيرت مجارى اعماله وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلا من خاصته اسمه عبد الله فى وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كانه يستمهل ملاك الموت ريثما يصل حفيده لئلا يذهب ما فى نفسه ادراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثا

. اما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلق على ابى رحاب . وكان من شدة حبه لقطام يود بقاء جده حيا ليبشره برضائها وقبولها لانه طالما صرح له برغبته فيها . وكان ابو رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر فى ذلك فرح ثم يعترض فرحه امر العهد وقتل الامام فيضطرب فيعلل نفسه بما يناله من الفخر اذا قتل عليا علاوة على استرضاء جده لأنه يطفىء ما يجيش فى نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته

قضى اكثر ايام الطريق فى مثل هذه الافكار لايبالى بمن حوله من الرفاق كانه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه فى طريقه من الجبال

والاودية والصحارى ، وما يمر به من الربوع والاحياء والخيام ، حتى اشرف على مكة من اكمة . فاذا هى فى منبسط من الارض تحيط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعوان. وكانت الشمس قدمالت الى الغروب فأسرع فى مسيره يلتمس منزل جده وقلبه يخفق خوفا عليه من بأس يصيبه قبل وصوله

ولم يكد يدخل مكة حتى أسدل الليل نقابه فساق ناقته يلتمس المنزل قبل اشتداد الظلام ، وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان يطوف بالكعبة قبل الذهاب الى البيت ، ولكنه سارهذه المرة توا الى المنزل وهو مضطرب خوفا على حياة جده

تعرج على منعطف يؤدى الى البيت رأى فيه اناسا عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحياهم وسألهم عن حال ابى رحاب . فلما عرفوه طمأنوه وسبقه بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلما اطمأن قلب سعيد على جده هدأ روعه وترجل عن ناقته وسلمها الى الخادم ومشى وهو بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم ينتظر أن يفتحوه له . ومر فى فناء لم ير فيه احدا وسار توا الى الحجرة التى يقيم بها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الحجرات . وقبل الوصول الى الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشى الهوينى على اصابع قدميه مخافة ان يوقظ المريض من نومه العميق . فعرفه سعيد انه من بعض ذوى قرباه فسأله عن جده

فاجابه : « انه نائم نوما عميقا وقد مضى عليه بضعة ايام لاينام فلما احس بالنعاس اخرج الناس من غرفته ولم يبق سواى واوصانى ألا اوقظه الا اذا جئت أنت »

قال : « دعنى ادخل عليه وهو نائم » ؛ قال ذلك ونزع حذاءه ودخل الحجرة يسترق الخطى . فاجتاز العتبة واطل على حجرة مضيئة بسراج على مسرجة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش. وكانت فتيلة السراج ثخينة يتصاعد من لهيبها سناج يتطاير فيترك فى صعوده آثارا سوداء على الحائط قرب السراج ، ولو كان لون الحائط نقى البياض لظهرت آثار السناج اكثر جلاء ولكنه كان مدهونا بطين اسمر

تقدم سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق اشفاقا من أن يكون جده قد رقد رقادا ابديا . فمشى على حصير من سعف النخل يكسو ارض الغرفة ، عليه غطاء كالبساط مصنوع من جلد مصقول . وكانوا لما اشتد به الضعف رفعوه عن الارض الى مقعد مستطيل ، ظهره شبكة من نسيج الجلد ، وهى قدد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها مباشرة او يجعلون فوقها الفرش ، وقد توسد ابو رحاب فراشا رقيقا والتحف ببرد من صوف اسود يغطيه الى اعلى الصدر ، واستلقى على ظهره ويداه مضمومتان تحت

الغطاء وعيناه مغمضتان يظللهما شعر حاجبيه فيزيدهما غورا

فلما اقترب سعيد من جده نظر الى صدره فرآه يتنفس تنفسا هادئا فهدأ اضطرابه وسكن بلباله ولبث واقفا يتأمل فى مظاهر الهرم . فذكر ان جده كان من كبار الهامة طولا وعرضا ، ولكنه اصبح هيكلا من عظام مكسوا بالجلد . اما وجهه فلم يكن ظاهرا منه الا الانف والجبهة وما بقى منه كان مغطى بالشعر الابيض الناصع . وازداد منظره رهبة حينئذ لضعف النور حتى خيل الى سعيد لما اشرف على فراش جده أن رأسه كتلة من القطن المندوف يتخللها نتيات مظلمة هى الانف والوجنتان والجبهة ، واما ماخلا ذلك فقد غطته اللحية والشاربان والحاجبان ، واستطالت لحيته وانبسطت حتى غطت عنقه وصدره ولكنها كانت قليلة الشعر تشف عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاته وفى مقدمتها القصبة وقد برزت بروزا عظيما اما الراس فقد كان حليقا او لعله اصلع

وكان شيخنا الراقد قد دله قلبه على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه البراقتين واجال نظره فى جوانب الغرفة فوقع على سعيد فتبسم . فلما رآه سعيد قد استيقظ جثا امام فراشه وهم بتقبيل يديه . فرفع ابو رحاب ذراعيه وضم سعيدا الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقه وخديه بلهفة وسعيد يطاوعه على كل حركة يريدها. فاطال ابو رحاب عناقه وسعيد صابر حتى احس بماء ساخن ينحدر على خده علم انها دموع سخينة ولكنه لم يدر ادموع الحزن هى ام دموع الفرح. على انه خاف عليه فاستاذنه ونهض عن صدره فرآه يحاول الجلوس فاعانه بيديه ونظر اليه وهو جالس فذهل لشدة ضعفه حتى تخيله قفصا من عظام

واخذ ابو رحاب يصلح لحيته وشاربيه ويمسح عينيه . ثم مد يده الى سعيد فعلم هذا انه يريد يده فاعطاه اياها ، فامسكها بيديه فاحس سعيد كانها اصابع من حديد ليبس انامله وجفاف جلدها وبرودتها ، وشعر برعشة رعشا متواصلا مما انتابه من الضعف الشديد

▭

وما زال سعيد يشاهد فى جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهورى رنان . فاستانس به واطمأن لسماعه . واول كلمة سمعها منه قوله : « الحمد لله على مجيئك سالما . لقد اطلت الغيبة ياولدى »

قال : « لقد جئتك مسرعا حالما علمت برغبتك فى ذلك؟ كيف انت الآن وبماذا تشعر يا جدي ؟ »

قال : « كنت أحسبنى على شفا الموت ولكننى لما رأيتك وأمسكت يدك شعرت برجوع قواى . فأنا الآن كما تعرفنى من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتى ليمكننى من تزويدك بنصيحة هى آخر ما أتلفظ به فى الحياة »

قال : « انى أشتاق لنصحك كل حين وارجو أن يمد الله فى أجلك لتشهد زواجى بقطام » . تم التفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد فرأى المكان خاليا فقال بصوت منخفض : « وتفرح بما يسبق ذلك من الانتقام الذى طالما تاقت نفسك اليه »

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقهما من خلال الحاجبين ، وكان قوس الشيخوخة واضحا حولهما ، ثم سمع جده يقول : « أما زواجك بقطام فقد فهمته وسرنى بلوغك مرامك وأما الانتقام فلم أفهم علاقته بها »

فتبسم وقال : « الا تذكر يا جداه ما قمنا به منذ أعوام وقام به كل بنى أمية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلما . وهل جرؤ أحد على الانتقام بقتل القاتل ليخلو لنا الجو ؟ »

فقطب الشيخ جبينه كأنه غضب وقال : « من هو القاتل ومن سيقتله ؟ »

فأدنى سعيد شفتيه من أذن جده وقال : « ان القاتل على بن ابى طالب وأنا سأقاتله ، وفى ذلك مافيه من الفخر والفضل ، وأتمنى أن يمد الله فى بقائك ليتم الامر تحت جناحك »

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه ، وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته. ولا تسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلا بصوت عنيف : « لا لا . لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البرىء »

فذهل وظن ان جده لم يفهم كلامه فقال له : « تمهل يا جداه ، اى برىء تعنى ؟ انى سأنتقم من على بن ابى طالب ، فكيف تقول انه برىء وأنت أول من دعا الى مطالبته بدم عثمان . يظهر انك اخطأت مرادى »

قال : « كلا انى لم اخطىء مرادك فلا تخطىء انت مرادى . ان عليا برىء . . . انه برىء مما اتهمناه به . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا أراد سوءا بالمسلمين ، ولا ارتكب أمرا يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه فى منام لعلمه أن جده كان من اوائل الناقمين على على فكيف انقلب الى الضد . فتبادر الى ذهنه أن جده قد خرف

وادرك ابو رحاب ماجال فى خاطره فقال له : « لايخالج ذهنك شك فى صحة

عقلى فانى انما أقول ما اقوله عن روية وصدق نظر، ولم استقدمك من العراق الا لهذه الغاية . ولا اقول ذلك جزافا بل اثبته بالبرهان »

ولبث سعيد مذهولا مستغربا لكنه صبر وقال : « وما الذى دعاك الى هذا التغير العظيم . كيف يكون ذلك ؟ وكيف يكون على بريئا من دم عثمان ؟ بل كيف تعترف انت ببراءته وقد كنت من اوائل متهميه ؟ »

فأشار الشيخ بيده الى سعيد أن يجلس ويهدىء روعه ويصبر ثم قال : « اما ما دعانى الى ذلك فهاتف سمعته يقول ويكرر القول : (ان عليا برىء وانما يتهمه اهل المطامع وذوو الاغراض) . وكنت كيفما توجهت اسمع هذا الصوت يرن فى اذنى حتى اقلق راحتى . فبحثت عن الامر بنفسى وتدبرت ما اعلمه من تاريخ على وعثمان وغيرهما من القائمين بهذه الفتنة ، فوجدت معاوية وسائر بنى امية على ضلال ، بل هم اهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها »

وقطب حاجبيه وقد ابرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول حدقتيه وبان الجد فى لهجته ، فظل سعيد صامتا لايبدى حراكا لما استولى عليه من الدهشة

على خير من معاوية

ثم أجال الشيخ يده فى لحيته وأصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال : « يزعم معاوية وأصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذب عنه قبل قتله . ولقد يضحكنى مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان ، وهو أول من أراد قتله وسعى فى ذلك حتى افتخر بأنه قتله وهو فى فلسطين . فقد علمت انه لما بلغه مقتل عثمان وهو فى وادى السباع قال : (انا قتلته وانا فى وادى السباع) يعنى انه سعى فى قتله عن بعد . فلا يغرنك بعد ذلك مجيئه هو وأبناؤه ماشين الى دمشق يبكون ويقولون : (واعثماناه ! . ننعى الحياء والدين) . انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية ...

« وأما معاوية وسائر بنى امية ، فهل تحسبهم شرعوا الاسنة وايقظوا الفتنة مطالبة بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ . اذا كانوا فعلوا ذلك غيرة وحناناً فما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب أنهم تأخروا عن نجدته كرها كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا أولاده . واذا كانوا يؤمنون بانه قتل ظلما وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه ، فلمـاذا لم يولوا الخلافة ولدا من أولاده ؟ أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطان ؟

« وهكذا فعل ايضا طلحة والزبير ، فقد قتل عثمان وهما فى المدينة على قيد أذرع منه، فلو أرادا بقاءه لم يعجزهما الدفاع ولكنهم سكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة افضت الى على ، تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا : (انه قتل ظلما) .. »

وكان الشيخ يتكلم محاولا خفض صوته فلا يطاوعه التهيج فلا يلبث حتى يرتفع صوته تتخلله غصات وارتجاج . واما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه تهيبا واحتراما. فلما وصل أبو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه من نفثات ريقه لأن الهرم أخلى فكيه من الأسـنان ، فانتهز سعيـد تلك الفرصة وقال له : « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعا فى الخلافة ولا تحسب عمل على مثل عملهم. وقد كانوا جميعا فى المدينة ؟ وكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم

والباقون ينتظرون ؟ . لماذا لا تحسب ذلك طمعا من على ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية او هى قهقهة تشبه الضحك لعظم ما قام فى نفسه وهو فى آخر يوم من ايام الدنيا ، واول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتم قهقهته حول وجهه الى سعيد وقال : « اتسالنى عن خلافة على وقد كان الاولى بى ان اسائل نفسى ما الذى اعمانى عن حقه فيها من اول الامر ؟ صدق القائل ان الغرض يعمى ويصم ... ان الخلافة لم تكن لأحد من الصحابة قبل هذا وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره زوج ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاما بعدخديجة ، وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربى فى حجر ابى طالب والد على . وقد كفله ودافع عنه فى بدء الدعوة . وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيرا ماهموا بايذائه وابوطالب يمنعهم بماله من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد على وربى فى حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو فى العاشرة من عمره وذب عن الاسلام بقلبه ويده ولسانه . ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على ايذاء الرسول (صلعم) فى مكة فاعتزم الهجرة ، وكيف ان عليا اقام مقامه فى منزله فتسجى ببردته وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل ونجاه الله . هذا عدا حروبه فى الغزوات والسرايا ، فقد شهد معظم المواقع واشهرها ، وبذل نفسه فى الذب عن الاسلام يوم كان معاوية وابوه واخوته فى مكة من الد اعداء الاسلام . ولم يسلموا الا بعد فتح مكة اى بعد قنوطهم من النصر »

□

كان ابو رحاب يتكلم والعرق يتصبب من جبينه كانه اتى عملا شاقا يجهد نفسه فيه ، وسعيد صامت مطرق لايزل فى دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم يجرؤ على كلام . وطال سكوت جده فهم بسؤاله فرآه يتحفز للكلام فسكت واصغى . فقال ابو رحاب : « اراك دهشت !! سمعته كانك لم تعلمه قبلا ، ولا الومك اذا علمته وتجاهلته فانى اكبر منك سنا واعلم منك فى هذه الشؤون وقد اعمانى الغرض ، وكاننى بعد ذاك الهاتف قد فتحت عيناى وصرت انظر الى الحقيقة كما هى ...

« نعم ان عليا اولى منهم جميعا بالخلافة ، والرسول (صلعم) فضله عليهم جميعا وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة : (انت اخى فى الدنيا والآخرة) . وخاطبه مرة وقال : (لايحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر) . ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب كيف لم يتول الخلافة قبل الآن . ولا سيما بعد قول الرسول : (ان عليا منى وانا من على وهو ولى كل مؤمن بعدى) وقوله (صلعم) : (من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من

عاداه) . فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافتـــه ؟ بل كيف لايعجب لتقاعده عن الخلافة الى الآن ؟ »

وكان سعيد مطرقا وقد تغيرت سحنته وتولته الدهشة حتى ظن نفسه فى منام ، وندم على مجيئه لأنه أصبح بعد سماع ذلك الكلام حجرا بين مطرقتين لا يدرى ايقوم بعهده لقطام التى ملكت لبه أم يعمل بوصية جده وهو فى آخر ايام الدنيا . فظل صامتا لا يبدى حراكا . وادرك جده ارتياكه ولكنه تجاهل ما يجول فى خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال :

« فانت ترى يا ولدى أن عليا أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابتـــه وصهره ووصية الرسول له ، ثم هو يمتاز عن سائر النـــاس بفضائل تكفى وحدها لتوليه أمور المسلمين ، ولا أرى فى معاوية شيئا منها . ان عليا رجل متقشف زاهد فى الدنيا ، رايته مرة انزل سيفه فى السوق فباعه ، فسئل لماذا فعل ذلك ، فقال : (لو كان عندى اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه) . ويكفى قوله فى وصف المؤمنين : (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى . يبس الشفاه من الظمـــا . عمش العيون من البكا) . ولو فتشت بيته اليوم ما وجدت فيه صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره فى اعزاز الاسلام وفتح الفتوحات ، ولم يلبس ثوبا جديدا ولا اقتنى ضيعة ولاريعا . ومن كان فى مقامه يقدر على حشد الاموال واقتناء العبيد والاماء والضـــياع كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان ، وصاحبنا وابن عمنا معاوية . . . »

▭

ثم سكت الشيخ وتنهد تنهدا عميقا وقال وصوته يعلو بالرغم منه : « ان معاوية خدعنا بتظاهره بنصرة الخليفة المقتول حتى كرهنا الامام عليـــا ، وقد كنا فى ظلمات من الغرض لا نرى الحق ، واما الآن وقد انقشع الغشاء عن عينى فقد اصبحت ناقما على معاوية ، واذا فكرت فى اعماله واعمال على كدت اتميز غيظا ويتفطر قلبى اسفا على ما نال هـــذا الامام من الاذى . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا فى وقعة الجمل ، فقد اشفق على عدوه اشفاقه على اولاده فأوصى اصـــحابه بالا يلحقوا مدبرا ولا يجهـــزوا على جريح ولا يمســوا النســـاء ولا الاولاد بسوء . وكم اوصى عماله أن يقسطوا فى احكامهم وقد اخبرنى رجل انه سمعه يوصى احد عماله ويقول : (لاتضربن رجلا فى جباية درهم ، ولا تبيعن رزقا ولاكسوة شتاء ولا صيف ، ولا دابة يعتمدون عليها . ولا تقيمن رجلا قائما فى طلب درهم) . ولو اردت ان اسرد لك من هذه الامثلة لضاق بى المقام وقد ينقضى اجلى قبل الفراغ منها وانا انما استعجل ملاك الموت ريثما اتم وصيتى . . فاصغ لى يا ولدى وتأمل عدل الامام على وحلمه

وما ارتكبه معـاوية وعماله من الاعتداء على المسلمين . وخوفا من التطويل وقد تعبت من الكلام ، اذكر لك حادثة قريبة العهد لايزال صـداها يرن فى الآذان .. آه .. آه من القساة اهل المطامع .. اتعرف عبيد الله بن عباس؟ »

قال : « كيف لا اعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم على بن ابى طالب . نعم اعرفه »

قال : « اصغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من وقعة صفين وتحكيم الحكمين وظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص المعلومة ، بايعه اهل الشام وظل على فى العراق . ولم يقنع معاوية بما اوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق للفتح يدعون الى بيعته ونقض بيعة على. وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة ، فجاء المدينة وتولاها لأن عاملها فر من وجهه . ثم جاء مكة هذه منذ شهرين ولايزال الناس يتحدثون بفرار صاحبها ابى موسى الاشعرى من وجهه . فأكره اهلها على البيعة فبايعه اهل مكة مكرهين ، وقد كنت مريضا ولم أر وجهه . على ان عمله هذا لايستوجب ملاما . ولـكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله ابن عباس . فخافه عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان ، فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الا انه امر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنـه صبرا . وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد اودعهما عند رجل من كنانة بالبادية ، فأراد قتلهما وبعث فى طلبهما فجاء الكنانى ومعه الطفـلان فلما علم أن بسرا يريد قتلهما ذعر وصـاح قائلا : لم تقتل هـذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما . فلم يكن من ذلك الظالم الا انه قتـل الطفلين والكنانى . وعلمت ان الكنانى دافع عنهما حتى قتل . ولقد اعجبنى قول امراة من كنانة رأت ابن ارطاة مارا بعد تلك الفاجعة فقالت له : (ياهذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين . والله ما كانوا يقتلون الأطفال فى الجاهلية ولا فى الاسلام . والله يا ابن ارطاة ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة وعقوق الارحام ، لسلطان سوء)

« هذه ياولدى اعمال معاوية وعماله ، فأين هى من اعمال الامام على؟ وكيف تنقم عليه بعد ذلك ، وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟ »

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن اتمام الكلام ومل القعود فاستلقى على ظهره وهو يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه واتاه بلبن كانوا اعدوه له فشربه واستلقى يلتمس الراحة ، وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع فى حيرة من حيرة . فذكر

عهده لقطام ولبث صامتا . وكان جده الشيخ يلتفت اليه خلسة يرقب حركاته وسكناته . فأدرك ارتباكه وعلم انه يفكر فى قطام واهلها فحول وجهه اليه وهو مستلق وقال : « اظنك تفكر فى قطام واهلها الخوارج ، وقد يخيل اليك ان خروجهم من طاعة على قد يطعن فى صدق ماقلته لك ، ولكنهم لم يخرجوا الا طمعا فى الدنيا فانتحلوا سببا لايسمعه عاقل الا هزا بهم وايقن جورهم . خلعوا طاعة على لأنه قبل التحكيم ، وما ذنبه وهم الذين اجبروه على قبوله ؟ وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه ؟ . ولكنهم رأوا معاوية قام فى الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم فى الحكومة لأنفسهم فاجمعوا على نقض البيعة ، ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيسا منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا فى حروبهم وعادت العائدة عليهم

« وليس فشلهم بالدليل الوحيد على سوء نياتهم ، ولكننى اتلو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته هى ان الخوارج عند اول خروجهم على على بعد رجوعهم من صفين ، نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق حمارا عليه امرأة ، فدعوه فانتهروه فافزعوه وقالوا له : (من انت؟) . قال : انا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له : أفزعناك ؟ . قال : نعم . قالوا لاروع عليك حدثنا عن ابيك حديثا سمعه من رسول الله . فحدثهم بحديث (انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ويمسى مؤمنا) . قالوا مالهذا الحديث سالناك فما تقول فى ابى بكر وعمر . فاثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول فى عثمان فى اول خلافته وفى آخرها . قال انه محق فى اولها وفى آخرها . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده قال انه اعلم بالله منكم واشد توقيا على دينه وانفذ بصيرة . فقالوا : انك تتبع الهوى وتوالى الرجال على اسمائها لاعلى أفعالها ، والله لنقتلنك قتلة ماقتلناها احدا . فأخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامراته وهى حبلى ، حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فاخذها احدهم فتركها فى فيه ، فقال آخر : اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فألقاها ، ثم مر بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد فى الارض ، فلقى صاحب الخنزير فارضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال : لئن كنتم صادقين فيما ارى فما على منكم من باس انى مسلم ما احدثت فى الاسلام حدثا ولقد امنتمونى وقلتم لا روع عليك . فاضجعوه فذبحوه فسال دمه فى الماء واقبلوا الى المراة فقالت : انى امراة الا تتقون الله ؟ . فبقروا بطنها . ثم هذه اعمال اعداء على وهذا هو على فكيف تنتقم عليه وكيف تقتله او تسعى فى قتله ؟ بل كيف نسكت عن قتله ولا تدفع عنه ؟ »

□

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر العهد الذى كتبه على نفسه

بقتل على لئلا يزيد غضبه . فظل ساكتا يفكر فى حيلة ينجو بها من وعده بالتى هى احسن ، فلم يسعفه ذهنه واحس بالتعب الشديد ، ورأى ابا رحاب قد تعب ايضا . فقال له : « لقد أتعبت نفسك ياجداه وانت توصينى فشكرا على رعايتك ، وانى أرى قولك الصواب واطلب اليه تعالى ان يقدرنى على العمل به ، فأسترح الليلة وغدا نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام » . قال ذلك واكب على يده فقبلها فرآها قد بردت ويبست . فقال له جده : « نم هنيئا يا ولدى فانى أخشى الا يصبح على الصباح فلا بد من كلمة أقولها وهى ختام ما اوصيك به » . قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان وذقنه تهتز : « اذا شئت يا ولدى أن يفارق جدك الدنيا آمنا مطمئنا فعاهده بأن تعمل بما اوصاك . لاتبغ سوءا للامام على واذا رأيت سبيلا للدفاع فادفع عنه بكل قوتك . هل تعاهدنى على ذلك ؟ . . عاهدنى عليه . واجبر قلبى واذكر انى جدك وكافلك ووصيك وانى ربيتك وتعهدتك وانى لا اريد لك الا الخير . هل تعاهدنى على ذلك ؟ قل نعم واجبر قلبى انى قلق عليك . . »

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوه وعطفه عليه فلم يسعه الا الايجاب فعاهده

ولكنه لم يكد يعاهده حتى ذكرعهده لقطام على عكس ذلك فعظم عليه الامر . ورأى جده يميل الى الرقاد فدعا الرجل الموكل به وأمره ان يتعهده فى اثناء رقاده وخرج الى غرفة اخرى ونزع ثيابه والتمس الراحة . أما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعد ما انتابه من شتى الهواجس

لم يهدأ لسعيد بال ، وازداد الامر خطورة لديه ، وهاله انه رمى نفسه بين عهدين متناقضين . فكان كلما تصور نكوله عن قتل الامام على شعر براحة بال واطمئنان ، ثم يعاوده طيف قطام وبعدها فترتعد فرائصه ويحار فى أمره

▭

وبقى على هذه الحال حتى انتصف الليل لايغمض له جفن ولا يستقر له قرار . فنهض من فراشه وتزمل ببرده وعباءته وتعمم وخرج الى الخلاء . وكان الظلام مخيما ورقد الناس وليس فى طرق مكة سائر فخفف السكون من اضطرابه ، وسار على غير هدى يفكر فيما هو فيه الى أن شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظل ماشيا يبطىء تارة ويسرع اخرى حتى رأى نفسه على باب المسجد الحرام فسرى عنه . فقال فى نفسه : « لأدخلن المسجد اصلى ركعتين لعل الله يوحى الى بما يخفف اضطرابى » . وكان الباب مفتوحا وصحن المسجد خاليا فتأبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فأحس لساعته

براحة فطاف حول الكعبة ثم التمس مكانا وراءها فاتكا وعادت اليه هواجسه . فأجال بصره يراقب النجوم السابحة فى الفضاء واخذ بجمال القبة الزرقاء وافكاره تائهة واشتد البرد عليه فادخل راسه فى العباءة يجعلها خمارا . وكان التعب والبرد تغلبا عليه فخدر واستولى عليه النعاس . ولكنه لم يكد يغمض لحظة حتى ابتدرته الاحلام فراى قطام بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان واخذت تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهم بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض العاتب وعيناها تتلالآن بالدموع ، فتفطر قلبه لرؤيتها على هذه الحال وساءه اعراضها ، فهم بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاهما من الرعدة فناداها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحولت عنه ومشت تنظر اليه شزرا ولسان حالها يقول : « لقد خنت عهدى فما انت اهل لى »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ، ولما ابتعدت عنه هم بأن يناديها فافاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام يحدق به

فمسح عينيه ليتبين إنى يقظة هو ام فى منام ، ولما تحقق انه كان حالما حمد الله ولكنه ايقن انه اذا لقى قطام فلن يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتا تتقاذفه الهموم وهو لايهتدى الى حل مقنع ، فنهض راجعا الى المنزل ليرى ماذا حدث لجده . واشتاق ان يأوى الى فراشه بعدما اضناه التعب والبرد . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة عندعودته حتى سمع لغطا خافتا كان اناسا يتسارون . وكان قد وصل الىَ مقام ابراهيم امام الكعبة فوقف واصاخ بسمعه فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمسا يتكرر كان القادمين يتشاورون فى امر خطير . فانزوى وراء المقام فى مكان لاينتبه اليه احد فى الظلام ، وكان لايرى الا الكعبة وما حولها

١٧ رمضان

وبينما كان سعيد واقفا فى مكانه اذ راى ثلاثة رجال لم يعرف احدا منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء ولم يتمكن من تمييز الوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفا كالخمار اما اتقاء للبرد واما تنكرا

فعجب لامرهم وخفق قلبه خوفا من انكشاف مخبئه وحذرا من ان يكونوا قد استخفوا ليكيدوا لاحد فاذا علموا به وبافتضاح سره قتلوه ، فبالغ فى انزوائه لاياتى بحركة وخشى ان يداهمه العطس فينفضح امره. اما هم فوصلوا الى باب الكعبة واقتربوا من سعيد بحيث يراهم جميعا فلو كان القمر طالعا او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيدا ولكنه لم يستطع أن يتبينهم لسواد الليل . على انه لمح من بادى احوالهم وحركاتهم أنهم فى امر ذى بال ، وكان احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس رفيقاه الاربعة وظل هو واقفا ثم جلس القرفصاء وقال : « مالنا ولهؤلاء انهم جبناء ، تعالوا نبدأ نحن بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثانى وكان قصير القامة ممتلىء الجسم : « أنا على رأيك فانه لم ينلنا من الائمة الا الضرر . يتنازعون على الخلافة فيقتتل المسلمون فى نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعا » . قال ذلك بصوت خافت وفى نطقه لجلجة وكان يلتفت يمنة ويسرة لئلا يسمعه أحد

فقال الرفيق الثالث وكان لايزال ساكتا : « انى لا اذكر يوم النهروان ومن قتل فيه من الابطال حتى يقطر قلبى دما . ان علينا قتلهم لانهم لم يرضوا بالتحكيم »

فابتدره طويلهم وكان اجراهم كلاما واعلاهم صوتا على عكس رفيقيه فقال : « لايجدينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون فى نصرة هؤلاء الائمة ولا نبدى حراكا . هلم نكف المسلمين شرهم »

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم يتآمرون على قتل جماعة من الائمة ، وان الامام عليا واحد منهم ، ولم يعلم من هم الآخرون . فجعل يرتعد فرقا وخوفا من ان ينكشف مكانه ولكن حب الاستطلاع جعله يقدم على علم ما هم فيه ، فبينا هو ينزوى ليختبىء ويتمنى على السحب ان تشترك مع الظلام فى حجبه عن العيون اذا به راغب فى كشف ما يبيتون

وسكت صاحبا الرجل الطويل الجرىء بعد ان انتهى من كلامه . فلما راى صمتهما ابتدرهما قائلا : « وماذا علينا لو متنا ؟ حبذا الموت فى سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . واصل الفتنة ثلاثة يتنازعون على الخلافة وسلطان الدنيا وهم على بن ابى طالب ومعاوية بن ابى سفيان وعمرو بن العاص. هلم بنا نقتلهم نرح الناس منهم »

فقال الثانى : « انى على رايك من اول الامر فكيف السبيل الى قتلهم وهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر فى وسيلة تضمن لنا الفوز ونامن بها الخطر »

فاسرع الاول فى جوابه وقال : « اراك تتردد كانك تخاف هول الموقف او كانك تتمنى ان يكون نصيبك قتل امام يرهبك . تعالوا نقسم العمل فيما بيننا . تعالوا نقسم ليقتلن كل واحدمنا واحدا من اولئك الثلاثة ، ونعين يوما نباشر العمل فيه معا ، فيكون احدنا فى الكوفة لقتل على ، وآخر فى مصر لقتل عمرو ، والثالث فى الشام لقتل معاوية . وهكذا يقتل كل منا صاحبه فى ذلك اليوم فيصبح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة ، فيختارون خليفة يولونه امورهم وترجع الخلافة الى بساطتها »

فلما سمع سعيد ذلك تهيب الامر واستعظمه ولم يصدق انهم يستطيعونه وبدا له ان قتل على يمهد له رضاء قطام وان لم يكن قتله على يده ، ولكنه تذكر كلام جده وما اوصاه به من الدفاع عن على لبراءته مما ينسبونه اليه فانقبضت نفسه ولكنه افاق من اضطرابه عندما عاد المتآمرون الى الكلام . فلما فرغ اولهم من كلامه ولم ير اقبالا عليه من رفيقيه لم يصبر حتى يسمع ما يقولان وانطلق يقول : « لاتترددوا ولايهولنكما الامر فهو اسهل مايكون على ذى جراة . وكانى بكما تفكران فى قسمة العمل وتخافان ان يكون نصيب احدنا اصعب مراسا من نصيب الآخر ، فلا تخافا فانى آخذ على عاتقى قتل اكبر هؤلاء الثلاثة واشجعهم . انا اقتل عليا بن ابى طالب ، فانى وان يكن مقامى بالفسطاط فانى آتى الكوفة فاقتله » . قال ذلك واقبل حتى دنا من باب الكعبة وامسك بحلقته وقال : « ها انذا امسكت بحلقة الكعبة واقسم بالله وبهذا البيت الحرام لاقتلن عليا بن ابى طالب وابذل فى هذا السبيل ما فى وسعى واشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه متحمسين فامسك كل منهما بحلقة الباب واقسم احدهما ليقتلن معاوية بن ابى سفيان ، والآخر ليقتلن عمرا بن العاص

ولا تسل عن سعيد عندما شهد هذا العهد الخطير وقد تمنى لو عرف المتآمرين ولكنه لم ير سبيلا الى ذلك . ولكنه فهم من سياق الحديث ان الذى آلى على قتل الامام على من اهل فسطاط مصر

ثم عاد الثلاثة الى مجلسهم فقال احدهم وهو السجين القصير: « لقدتعاهدنا

على قتل هؤلاء الائمة ولكننا لم نعين اليوم الذى نفعل فيه ذلك فان لم نعينه فشلنا جميعا »

فقال الثالث : « وهـذا ما أراه أنا أيضا لاننـا ان لم نعين اليوم كان المجال واسعا ، ونخشى ان سبق احدنا الآخر ولم ينجح أو قتل او قبض عليه ان يخاف الباقيان وينكلا . فلنعين اليوم والساعة »

فقال الاول : « ان الساعة يصعب تعيينها فلنعين الليلة ليتم عملنا فى ليلة واحدة . فى اى الشهور نحن الآن ؟ »

قالا : « فى جمادى »

قال : « فليكن موعدنا رمضان المبارك لنشهد عيد الفطر والمسلمون قد اطمانوا ، واذا قتلنا لقينا ربنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالى رمضان »

قال الثانى : « انا اختار الليلة السابعة عشرة من رمضان فما قولكما ؟ »

قالوا : « انها خير ليلة » . ونهضوا وسعيـد يخاف ان يمروا به ويروه ، ولكنهم داروا حول الكعبة كانهم يطوفون بهـا ولبث هو ينتظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر او داروا وتحولوا الى البـاب الذى دخلوا منه . فرفع راسـه ونظر حوله فلم ير احدا ولا سـمع صوتا فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر فيما مر به وهو يحسب نفسه فى حلم لغرابة ما رآه واتفاق حدوثه فى الليلة التى اوصاه جده فيها بالا يقتـل عليا . ونظر الى الافق فاستقبلته الزهرة تتلالا كانها تبشره باقبال الفجر . وتذكر جده فراى ان يعود الى المنزل قبل ان يطلع النهار ويخرج الناس . ومشى

▭

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة ان يكون جده قد اصـاب حتفه فى غيابه فدخل الدار فراى السكون مخيما عليها فاستبشر وقصـد الحجرة التى كان جده نائما فيها فراى المصباح مضيئا فاطـل من الباب فراى عبـد الله جالسـا بجانب الفراش وجده نائم . فنظر الى عبـد الله كانه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باش فاطمان قلبه وقبل ان يلقى التحية ابتـدره عبد الله قائلا : « لقد شغلنا بغيابك فان جدك افاق من نومه مرارا وطلب ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد الح كثيرا فى طلبك »

قال : « وكيف هو الآن ؟ »

قال : « فى خير وقد رايناه فى راحة لم يذقها منذ ايام »

ولم يتم عبد الله كلامه حتى راى ابا رحاب يتحرك فى فراشه فتقدم سعيد اليه ففتح عينيه واشار اليه فدنا منه وجثا امامه

فقال ابو رحاب : « أين كنت ياولدى فقد طلبناك فلم نقف لك على أثر ؟ »

قال : « خرجت فى حاجة الى الكعبة واتفق لى حادث تشغلنى عن المجىء حتىَ الآن »

فمد الشيخ يده وقبض على يد سعيد وضغط عليهـا كأنه لا يريد أن يفارقه وسعيد صامت لا يبدى حراكا لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر أنه انما ضغط على يده بغية الوداع

فترقرقت الدموع فى عينيه والتفت الى عينى جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليه فتفطر قلبه وهم بأن يتكلم فابتدره جده قائلا : « انى لا أزال فى قلق على مستقبلك وأخشى الا تكون قد استوعبت نصيحتى فقد نصحتك وأنا فى آخر أيام الدنيا نصيحة أوحى الى ان ألقيها اليك . وقد تركتنى الليلة غارقا فى بحار الاحلام وكان هاتفا خوفنى من غيابك . هل أنت باق على عهدى ياسعيد ؟ »

قال : « لقـد عاهدتك يا جداه عهدا وثيقا انى لا أسعى بضر للامام على ماحييت ، وأنا باق على عهدى ، وأزيدك علما اننى صادفت فى الكعبة عصبة يتآمرون على قتله وقتل صاحبيه معاوية وعمرو فى يوم عينوه وتعاهدوا عليه فلم يبق ثمة حاجة الى سعيى »

فبغت الشيخ وحملق وصاح : « ومن هؤلاء ؟ »

فقص سعيد خبره مختصرا وختم كـلامه قائلا : « انى لم أعرفهم وما استطعت اللحاق بهم خوفا منهم لأنى أعزل »

قال : « ألم تعرف الذى حلف على قتل الامام على »

قال : « كلا ولكننى علمت من كلامه أنه من مصر ، ويغلب على ظنى أنه من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنه يفكر فى أمر مهم ، ولحظ سعيـد من شخوص عينيه وذبول اجفانه وانقلاب سحنته أنه تعب . وأما ابو رحاب فتجلد وقال وهو يرتجف ولا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كان لسانه شد برباط : « يا ليتنى كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك ... فلو استطعت استمهال اجلى لسعيت فى البحث عنهم فاذا عرفت الساعى فى قتل الامام على ارجعته عن غيه بالبرهان ... انهم والله ظـالموه » . ثم سكت هنيهـة ليستريح وعاد الى الكلام وهو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه وقد أسرع تنفسه وظهر الاضطراب عليه ، فعلم سعيـد ان جده فى النزع فارتعدت فرائصه وتخشع قلبه وحزن ، ولكنه أصغى لتتمة حديثـه فاذا هو يقول : « وأما أنت يا سعيد فاصغ لقولى واعمل بنصيحتى .. ولا

اقبل منك السكوت عن هذا الامر . . . وانما انت . . . مكلف بالبحث عنه . . . انك مكلف بالبحث عن هذا . . . الرجل فى مصر . . . والشام . . . والعراق حتى تعلم مقره . . . . فاما ان تقنعه . . . واما ان تنبىء . . . الامام بأمره . انى . . . القى . . . هذا الامر على عاتقك . . . فاحذر . . . ان تتقاعد عنه . والا فانك . . . قاتل عليا بيدك . . . هذه وصيتى لك ، احتفظ بها ولا تتمهل او تتكاسل . . . والله شاهد . . . على ما اقول . هذه . . . وصيتى الاخيرة بل . . . هذه . . . آخر كلمة افوه بها فى هذه . . . الحياة الدنيا . . . . وكنت مستغربا تأخير اجلى الى . . . الساعة . وكنت احسبنى . . . ميتا منذ ايام ولكن الله . . . انما اراد بذلك . . . ان اكل اليك . . . هذا الامر . . . هذه آخر وصيتى لك ، ابحث . . . عن هذا الرجل وارجعه . . . عن غيه . . . كما ارجعتك . . . ولو اوتيت . . . عمرا ثانيا لقمت فى بنى امية . . . وفى الخوارج خطيبا اصرح ببراءة . . . الامام على ، على رؤوس الاشهاد ، ولكن آه . . . ان الساعة آتية . . . لاريب . . . فيها . . . وها انذا استودعك . . . الله وآخر ك . . . لم . . . ة اقو . . . لها لك . على . . . على . . . اد . . . فع . . . عن على بيدك . . . وقلبك . . . ولسا . . . ن . . . ك »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اختنق صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها فى اطراف المنزل وارتخت مفاصله ، فافلتت يد سعيد من يده ونظر سعيد الى جده ، فاذا هو قد اغمض جفنيه ووقف تنفسه . . فجس يده فاذا هى باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وأرسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فيه فاصبح جسما بلا روح . فاقشعر بدن سعيد ودق يدا بيد وصاح : « واجداه واجداه . ويلاه كلمنى وزدنى نصيحة اخرى . . . » . وما من مجيب . وكان عبد الله قد خرج فعاد ولما راى ابا رحاب قد مات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

ولم يكن الحزن على موت ابى رحاب شديدا لتوقعهم ذلك منذ ايام . اما حزن سعيد فكان مضاعفا لامتزاجه بالهواجس والاضطراب ولما سمعه من جده وما هو مقيد به من العهود المضادة

▭

وبعد الدفن عاد سعيد الى صحوه وفكر فى حاله فراى نفسه فى مشكلة لايدرى كيف يتخلص منها ، وبعد التأمل الطويل راى انه قد يسهل حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة على فتتنزل عن حقدها ونقمتها ، فلما فتح عليه بذلك توسم خيرا واحس بانفراج الازمة ، فأعمل فكره كيف يستولى على عواطفها ويغير اعتقادها فى الامام حتى تسكت عن طلب ثأر ابيها واخيها فخيل اليه ان اقناعها سهل فهدأ روعه

واسرع فى تدبير شؤون ذويه وكان فيهم شـــاب اسمه عبـــد الله رباه ابو رحاب كما ربى سعيـــدا ، وكان يتعزى به ويحبه ، وهو الذى انفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد ، فلما مات أبو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد بأن ياذن له فى مصاحبته والح فى ذلك كثيرا . فتعجب سعيد لتلك الرغبة فى السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالا الى ذلك

والسبب فى تلك الرغبة ان ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد ، فأرسل انفاسه الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك قبل موته فأوصى عبد الله هذا بأن يكون له عونا فيصحبه حيثما سار فينجده ويرشده فانه وان يكن شابا مثله ولكنه اعرف بالدهر وبالناس

وبعد أيام ودع سعيد اهله ، واصطحب عبد الله وسارا يطويان الصحراء الى الكوفة ، وعبد الله لايعرف شيئا من علاقة سعيد بقطام ولا ماتآمر عليه الثلاثة فى المسجد الحرام ، ولكنه فهم من حديث ابى رحاب معه ان سعيدا كان عازما على قتل الامام فأرجعه أبو رحاب عن عزمه . وسمع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم يتفهمها جيدا . فلما اوغلا فى الصحراء بدأ عبد الله حديثا تطرقا منه الى ذكر قتل الامام على ، واستانس سعيـــد بعبد الله وهو مخلص بفطرته ففتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الى الكوفة حتى أصبح عبد الله عارفا بكل مكنونات قلبه فشاركه فى شعوره بشأن عهده مع قطام ورجوعه عنه ، فثبته على اتباع وصية جده وهون عليه اقناع قطام الى ان قال : « فاذا لم تقنع فاتركها والنساء كثيرات وانا اختار لك فتاة من اجمل الفتيات خلقـــا وخلقا وارفعهن نسبا لاتقاس بها قطام » . وكانا يتحدثان وهما على ناقتيهما يطويان البيد طيا

فقال سعيد : « لا لا تقل هذا فليس فى النساء اجمل من قطام ولا صبر لى على فراقها بله اغضابهـــا فانك على ما يلوح لى لم تعـــان الحب ولا عرفت سلطانه » . قال ذلك وتنهد . . . وتوقف هنيهة ثم قال : « وهب انى لا احبها ولست عالق القلب بها فان فى يدها عهدا مكتوبا اخاف اذا اغضبتها ان تشى بى الى على او . . . ولـــكننى واثق بصدق مودتها فهى لاتريد بى سوءا بل تبغى رضاى »

فقال عبد الله : « اذا كانت تحبك كما تقول فليس أسهل من اقناعهـــا بالرجوع عن قتل الامام فيتاح لك البحث عن الساعى فى قتله وتردعه عن غيه فاذا لم يرتدع قتلته او نقلت خبره الى الامام ليرى رايه فيه »

فارتاح سعيد الى هذا الراى

اقبلا على الكوفة والشمس مائلة الى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار يستحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من الذهاب الى بيت قطام اذ لاصبر له على تأجيل زيارتها وهو على مقربة منها ، فلما دنا الغروب وهو لم يدخل الكوفة بعد ، انقبضت نفسه ، وادرك عبد الله ذلك مما آنسه فيه من السكون . فأراد أن يروح عنه فقال له : « أبعيدان نحن عن منزلك »

قال : « اذا ما دخلنا المدينة دنونا منه لأنه فى أطرافها »

قال : « انى أستعجل الوصول لأستريح من وعثاء السفر وانجو من ركوب الجمال فقد أتعبنى اليوم جريها »

قال سعيد : « انى أرانى على ضد ذلك وتحدثنى نفسى ان أصلى العشاء فى المسجد قبل المبيت »

فادرك عبد الله انه انما يريد زيارة قطام ليطلعها على حديث جده ويرى مايبدومنها عندما تعلم بما عول عليه ، فرأى أن يثنيها عن زيارتها حتى يتمكن من تهيئة السبيل والحيلة فى مخاطبتها لئلا يفشلا ، لعلمه بما هوعليه سعيد من سلامة الطوية التى يخشى عليه منها . فقال له : « دعنا نصل العشاء معا فى المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلى فى المسجد »

فلم يراجعه سعيد حياء وقبل . ولكنه أسر فى قلبه أن يذهب خلسة الى منزل العجوز لبابة ليتحسس الحال

ودخلا الكوفة وقد أمسى المساء فقصدا الى منزل سعيد فترجلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالنعاس فذهب كل الى فراشه ، وانتظر سعيد حتى ظن رفيقه قد نام فالتف بعباءته وانسل الى بيت لبابة وقطع طريقه يفكر كيف يبدأ بالكلام . فلما وصل رأى لبابة خارجة منه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها ، فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهى لا تكاد تصدق أنها تراه . فلما تحققت أنه سعيد رجعت وهى تبالغ فى الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بترحابها ، ثم تذكر ماجاء فيه من الامر الجديد فانكمش قلبه ولكنه تبعها حتى وقفا بباب الحجرة فأمرت عبدها أن يضىء المصباح وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله . فقال : « انى وصلت الساعة ومن شدة تعبى من السفر الطويل لم أصبر على رؤيتك قبل المنام »

فقهقهت قهقهة دوى لها البيت وخيل اليه لفرط قلقه أن عبد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت : « وما الذى يضحكك يا خالة ؟ »

قالت : « لقد أضحكنى شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (واشارت الى وجهها) وانت انما تشتاق الى رؤية وجه أجمل منه . . . أليس كذلك ؟ »

فقاطعها وهو يخفض صوته وقال : « لا والله انى الآن فى شـوق اليك أكثر من شوقى الى قطام لأنى وقعت فى ورطة لا ارى أحدا ينجينى منها سواك فاسعفينى برأيك ودهائك . وارجو قبل كل شيء أن تحفظى قدومى اليك الآن سرا تكتمينه عن كل انسان ، لأن معى رفيقا صحبنى من مكة فلما وصلنا الى الكوفة ورأى ميلى الى الخروج اقعدنى حتى الصباح فاستحييت وبقيت فلما استغرق فى نومه جئت خفية . . »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول : « لقد عودتنى يا خالة أن تكونى عونا لى فى مصائبى فانت التى أقنعت قطام بمهارتك ودهائك بزواجى بها فالتمس منك الآن أن تقنعيها بما جئت به اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامه الشديد ولو كان قلبها حيا لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يخيفها امر . فقالت : « قل ما بدا لك انى مستودع أسرارك ولا آلو جهدا فى خدمتك »

فتنهد سعيد وسكت وهى تحدق فيه بعينيها الغائرتين . وبعد هنيهة قال لها : « لقد جئتك بأمر لا ادرى كيف ابدأ الحديث فيه »

قالت : « قل ولا تبالى ولا تجزع فانى عركت الدهر ولقيت الأهوال حتى لم أعد أستغرب أمرا . . . قل ما بدا لك »

قال سعيد : « انت تعلمين انى عاهدت قطام على قتل الامام على »

قالت : « نعم أعلم ذلك »

قال : « وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة »

قالت : « علمت انك شخصت اليها ولكننى لم أعلم السبب »

قال : شخصت اليها اجابة لطلب جدى رحمه الله »

قالت : « جدك ابو رحاب ؟ ما الذى اصابه ؟ »

قال : « انه مات بعد وصولى الى مكة بيوم واحد وكان قد بعث الى ليرانى قبل موته »

قالت : مات أبو رحاب ! . رحمة الله عليه . انه كان رفيقا بك شفوقا عليك وانا اعلم انك ربيت فى حجره وقد كان أحن من الوالد عليك . ولا شك ان موته شق عليك كثيرا . وكم كنت تود ان يبقى حيا ليفرح بك ويشهد زواجك بعد أن يعلم بما عاهدت عليه لتنقذ بنى أمية من العار و . . . »

فقطع كلامها قائلا : « آه يا خالة لقد كنت اظن هذا الظن قبـل أن أراه .

ولكننى ما لبثت ان ندمت على ذهابى اليه لأنه حملنى قبل موته حملا ترينى أنوء به »

قالت : « وماذا عسى ان يكون ؟ »

قال : « ان ما ظننته سببا لارتياحه قد رأيته داعيا لغضبه »

قالت : « هل اخبرته بعزمك على قتل على ؟ »

قال : « نعم اخبرته ولكنه انكر على قتله وأوصانى وهو على فراش الموت ان لا امد يدى الى هذه الجريمة لأن هاتفا جاءه وانبأه ببراءة الامام على مما يتهمونه به »

وكان سعيد يتكلم ولبابة شاخصة اليه وقد اسفت لخيبة مسعاها ، ولكنها لدهائها ومكرها لم تبد حراكا ولا اظهرت استغرابا بل تشاغلت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

واما سعيد فكان يكلمها وهو يتوقع بغتتها او غضبها فلما رآها صامتة مصغية تجرأ على اتمام الحديث فقال : « ولما سمعت كلام جدى جادلته فرايت منه اصرارا على رايه وقص على شيئا كثيرا من الأدلة والشواهد المؤيدة لقوله »

قال سعيد ذلك وسكت وهو ينتظر ماتقوله العجوز، فرآها لاتزال صامتة ولم يبد على وجهها شيء من الاستغراب ، فعطف بحديثه على المؤامرة التى شاهدها فى الكعبة ظنا منها انها توازن ماتقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام على وعمرو ومعاوية ، رأت فيها تعزية ولكنها اظهرت الاستخفاف بما تآمروا عليه وارادت ان تتحقق ما عول هو عليه فقالت : « وهل علم ابو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة ؟ »

قال : « نعم انى اطلعته عليها قبل ارسال نفسه الاخير ببعض الساعة فلم يزدنى الا ثقلا بوصية قالها وهو فى آخر ساعات الدنيا .. آه من تلك الوصية »

قالت : « وما هى ؟ »

قال : « انه اوصانى بالا اكتفى بالكف عن قتل الامام على ، بل يجب ان ادفع عنه . فلم ار بدا من اجابة طلبه وانت تعلمين موقفى فى مثل هذه الحال ... ولكنى لم اعاهده الا بعد ان تفطر قلبى لدموعه التى كانت تنحدر على لحيته وقد شخصت عيناه وتلعثم لسانه وتلجلج صوته حتى خيل الى ان عظامه تتكلم »

▭

فلما تحققت نكوله عن عهده خافت اذا اظهرت له الاستياء ان يبوح بأمرها

وامر قطام الى على وهما فى الـكوفة فينتقم على منهما ؛ فارادت ان تخادعه فتاخذ منه ولا تعطيه فقالت : « ولماذا لم تذعن لجدك فان كلام مثل هـذا الشيخ الجليل يعتبر خارجا من افواه الملائكة »

فلما سمع كلامها انشرح صدره فابتسم وقال بكل سذاجة : « كيف لم اذعن ؟ لقد اذعنت وعاهدته وهل استطيع غير ذلك ؟ . ولـكننى عاهدته وقلبى فى شاغل بقطام وعهدها لعلمى ان ذلك العهـد يحرمنى منها » . ثم عطف فقال : « ولكنى لما تذكرت حبـك لى وغيرتك على هان الامر وقلت ان مايعسر على مثلى يهون على خالتى لبـابة ... بالله ... الا ساعدتنى على اقناع قطـام بالرجوع عن عزمها على قتـل الامام على ، انه والله برىء مما اتهموه به .. بالله ساعدينى واشفقى على فقد وقعت فى حيرة بل هى مصيبة لاينجينى منها سواك » . قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقه

فتظاهرت تلك العجوز المحتاله بالحنو وتبسمت وهى تجذب يدها من بين يديه لتمنعه من تقبيلهما واجلسته وقالت : « طب نفسـا يابنى ، انى فاعلة ما تريد وارجو أن يساعدنى الله على اقناعها ... »

فلما سمع سعيد قولها ابتسم والدمع ملء عينيه اعجابا بحنوها وفرحا بنيل بغيته التى لم يكن يتوقعها وفرح بمجيئه تلك الليلة ومقابلة لبابة قبل مقابلته قطام

اما لبابة فنظرت اليه وهى تحك ما وراء اذنها براس سبابتها كانها تفكر فيما تختلقه من الاسباب لاقناع قطام ، وهى فى الحقيقة تدبر حيـلة لخداع سعيد ثم قالت : « طب نفسا ولا تبالى فانى أضمن لك الفوز اذا اطعتنى .. » فابتدرها قائلا : « انى طوع مشيئتك فى كل ماتامرين، هذا مالى وكل ما املكه بين يديك »

وكان سعيد يتكلم ولبابة مطرقة . ثم سكت هو وظلت هى مطرقة ، ثم استانفت الحديث بغتة فقالت : « سبحان الله لقد مرت بى ايام وانا مستغربة مايبدو لى من قطام على غير المعتاد فقد يكون الذى فاه به جدك فى مكة اثر فى قطام هنا ولا ادرى ما هو هذا التاثير »

فدهش سعيد مما سمعه وقال : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « اعنى انى آنست من قطام تغيرا غريبا بعد ذهابك ، فانها لم تعد تذكر الانتقام وقضت اياما عديدة كانها فى حيرة او كان امرا طرا عليها لا تتكلم الا قليلا فعسى ان يكون ماغيرك قدغيرها . وعلى كل حال كن فى راحة وسكينة وانا ادبر الامر ، فلا تذكر انك جئت الى ولا انك رايتنى قبل رؤيتها »

قال : « بارك الله فيك . والله ان قضيت لى هذه المهمة لا ادرى كيف

اكافئك . ولكنى اتقدم اليك الا تذكرى زيارتى هذه لأحد ولا سيما رفيقى عبد الله »

قالت : « سمعا وطاعة فعليك اذن ان تأتى غدا لزيارتها فى منزلها وأنا هناك ، ولاتزد على السلام والكلام العادى . واحذر أن تذكر شيئا عما خضنا فيه الا اذا هى خاطبتك به . . وهل تنوى اصطحاب رفيقك غدا »

قال : « سيأتى معى ولا بأس من الخوض فى الامر بين يديه لأنه بمنزلة أخى »

قالت : « فليكن ما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك »

فازداد سعيد اعجابا بغيرتها وحنوها فقال لها : « اسمحى لى أن اقبل يدك فانى لما فقدت جدى الذى كان بمنزلة أبى حسبت نفسى يتيما ولكننى تحققت الآن من حنوك انى ما زلت مرموقا بعين العناية . ها انى قد ألقيت الحمل على عاتقك فدبرى الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مرارا ونهض ونهضت لوداعه وهى تقول له : « نم هنيئا وموعدنا فى اللقاء غدا فى بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبه يطفح سرورا لنجاته من شر عظيم . ولم يدر ما بيتته له تلك العجوز من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها واعملت فكرتها الخبيثة فى حيلة تنطلى عليه بحيث يصدق عدول قطام عن عزمها . ولولا خوفها من ان يشى هو بها وبقطام الى على اذا أنكرت عليه وصية جده لجاهرت بمقاومته ، ولكنها رأت من الفطنة والدهاء ان تجاريه فى رايه ، وتحمل قطام على مشاركتها فى ذلك ، ثم تحتالا فى بقاء المؤامرة مكتومة حتى ينفذ المتآمرون عهدهم فيقتل على . وما درت لبابة ان قطام اشد دهاء منها واعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة أخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقادا قبل اطلاع قطام على الامر ليهيئا الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى بيت قطام

لقاء قطام

أما سعيد فخرج والفرح ملء فؤاده حتى أتى منزله فرأى رفيقه نائما لفرط تعبه فسر لذلك سرورا عظيما ، ومضى الى فراشه ولـكنه لم يستطع رقادا لشدة تأثره ، فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر فى ساعة اللقاء غدا ولا يصدق أن يلقى قطام على مثل رأيه . فلمـا تصور عدولها عن قتل على كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جده وما كلفه به من السعي فى الدفاع عن على وردع الساعى فى قتله فيختلج قلبه فى صدره لهول ذلك الامر . على أن هـذا الامر لم يكن شيئا بالنظر الى ما يتوقعه من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض عيناه حتى الصباح ، ولم يكد ينام حتى أفاق مذعورا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فأسف لابطائه فى الفراش والوقت ثمين ، فنهض لساعته وخرج يبحث عن عبد الله فاذا هو قد لبس ثيابه ووقف يصلى فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول

فلما فرغ من الصلاة قال له عبد الله : « لقد أبطأت فى زقادك يا أخا أمية »

قال : « انما أبطأت لهول ما لقيناه من التعب فى الطريق »

فصدقه عبد الله وجلسا لتناول الطعام وسعيد غارق فى تصوراته وقد أدرك عبد الله ذلك فيه ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له : « ألا تنوى الذهاب الى قطام ؟ »

قال : « بلى أرى أن نسير اليها لعل الله يأخذ بيدنا ونرى منها انصياعا للحق فتعدل عن عهدها »

فأراد عبد الله أن يختبر ثباته فقال : « هب أنها لم تقبل فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك أم ترجع عما أوصاك به جدك ؟ »

قال سعيد : « اننا نبذل جهدنا فى اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدى مقدسة » .

فسر عبد الله لنباته على عزمه وهو لا يعلم أنه لم يفعل ذلك الا بعد ما أملته به لبابة من اقناع قطام ، ولولا ذلك لتردد فى الجواب كثيرا وربما آثر البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده ، لأن غرامه بتلك الغانية الفتانة غلب على كل عواطفه .

فلما راى عبد الله عزمه استعجله فى الذهاب الى قطام مخافة ان يطرا عليه ما يضعف عزيمته . وكان عبد الله أسر فى نفسه اذا آنس فيه ترددا أن يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا ومشيا يقصدان بيت قطام

ولم يكن بال سعيد خاليا من القلق ولكنه اطمأن الى ما منته به لبابة من الوعود

ووصلا الى المنزل ودخلا الحديقة فاختلج قلب سعيد اذ عادت اليه ذكرى لقياه قطام هناك وما تبادلاه من آيات الغرام . وفيما هما سائران بين النخيل رأيا لبابة بالباب تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه وراءه حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يكن قد رآها بعد رجوعه. فردت تحيته وسلمت على رفيقه ، فدخلا حتى اقبلا على قطام فاذا هى واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلبابا أسود فوقه خمار أسود فلما رأتهما ارخت خمارها واقبلت نحوهما ، فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وقال :

« لقد اتيت ومعى صديقى وأخى عبد الله فانه أنيسى ومساعدى »

فرحبت بهما ودعتهما للجلوس فجلسا وكلهم سكوت ، وبدأت العجوز بالكلام فقالت : « لقد اوحشتنا ياسعيد بطول غيابك وقد أخبرنا ريحان انك أتيتنا يوم سفرك فلم تر قطام فشغلنا عليك لسرعة ذهابك فعسى ان يكون الباعث خيرا »

فتنهد سعيد وقال : « كلا انه لم يكن خيرا ياخالة لأنى ذهبت الى جدى أبى رحاب فى مكة فقد ارسل أخى هذا عبد الله يدعونى اليه »

قالت : « وماذا عسى أن يكون سبب استدعائك ؟ »

قال : « دعانى لأراه بعد أن هرم وغلبه الضعف والمرض على أمره ، فلما تحقق دنو أجله أراد أن يرانى قبل موته فسرت ولم أمكث الا ليلة حتى قضى نحبه »

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كأنها لم تسمعه من قبل وقالت : « هل مات جدك ؟ . . رحمة الله عليه وعزاك الله وابقاك » . وتنهدت كأنها تذكرت من فقدتهم وقالت : « ان موت الاهل شديد الوطأة »

وكان عبد الله يراقب حركات قطام ، وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيدا على افتتانه بها وخاف أن تصر على عهدها فتخرج من نصيب سعيد ، فأحب أن يطرق الموضوع ليرى مايبدو منها ولكنه رأى انه لم يسبق له أن عرفها فقد تتجنب الخوض فى الامر ، فنهض وخرج وخرجت لبابة فى اثره اتماما لحيلتها

□

فلما خلت قطام بسعيد سألته : « من هذا الشاب . وهل هو ممن يوثق

»

قال بنغمة المحب المفتون : « انه رفيق صباى وموضع اسرارى ولا اخشى باسا من اطلاعه على كل شيء »

قالت : « وهل اطلعته على عهدنا ؟ »

قال : « نعم ياحبيبتى وهل ترين ما يمنع ذلك ؟ »

قالت : « كلا ، لا أرى مانعا ولكننى كنت أوثر أن لاتطلعه لخاطرخطر لى بعد ذهابك الى مكة »

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال : « وما الذى خطر لك ؟ »

قالت : « ساقصه عليك وآمل أن تطاوعنى عليه ولا تطالبنى بما سبق بيننا من العهود »

قال : « قولى ما تشائين . فمشيئتك هى العهد الذى يقيدنى . فانى رهين اشارتك »

قالت : « أتذكر لما جئت الينا يوم سفرك ولم تجدنى فى البيت ؟ »

قال : « كيف لا أذكر ذلك وقد كان له عندى أثر شديد »

قالت : « أتدرى اين ذهبت يومئذ ؟ »

قال : « كلا »

قالت : « خرجت فى ذلك اليوم الى اهلى ولم يكن غرضى الزيارة وحسب ولكننى شعرت بقلق واضطراب ولم أذق رقادا تلك الليلة التى عاهدتك فيها على قتل أمير المؤمنين . فلما أصبحت قلت فى نفسى لعل سبب هـذا القلق انى ارتكبت ذنبا بما سعيت فيه ظلما لقتل الامام . فلاح لى أن امضى الى اهلى وابحث وادقق عن حقيقة ماوقع ، فعلمت بعد البحث ان الذنب فى قتل ابى واخى لم يكن ذنبه هو ، وتحققت انه برىء ، وانه نصح لهما مرارا قبل الوقعة بان يرجعا فأبيا ، ولما احتدم النزال وعلم انهما فى خطر اوصى بالا يصيبهما احد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما وهو لا يدرى ، فلما علم غضب على القاتل وانتقم منه. فشعرت عندئذ انى قد اخطأت بما نويته واعتزمت ان احولك عما تعاهدنا عليه . فقضيت مدة غيابك وانا فى حيرة لا أدرى كيف ابدأ باقناعك . وحفظت ذلك سرا كتمته حتى عن خالتى لبابة »

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن النهوض فجأة ونادى عبد الله ولبابة فجاءا ، فالتفت سعيد الى عبد الله وقال له : « تعال اسمع يا أخى ما أعده الله لنا من اسباب السعادة . فاننا لم نكلف انفسنا عناء اقناع قطام . بل هذه هى تريدنا على أن ننسى العهد الذى رويت لك خبره وتقلع عما عزمنا عليه »

فتجاهلت قطام قوله وقالت : « ماذا تقول يا سعيد وما الذى جئتنا به عساه أن يكون خيرا »

فعرضت لبابة للكلام وقالت : « يلوح لى انك جئتها بمثل ماجاءتك هى به »

قال : « نعم يا خالة واحمد الله على ذلك فانى جئت من مكة مقتنعا ببراءة الامام على وأخذت على نفسى عهدا أمام جدى ألا أمس عليا بسوء ، وكنت أختى ألا توافقنى قطام عليه فأصبح أشقى الناس . فالحمد لله اذ قضى بما فيه خيرنا جميعا » . وجلس يقص عليهم حديث جده وما أوصاه به فظهرت امارات البشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان أحد المتآمرين آلى على نفسه ليقتلن الامام عليا تظاهرت قطام بالغضب وقالت : « ألم تعرف من هو الرجل ؟ »

قال : « لم أعرفه ولكننى علمت من سياق الحديث انه من فسطاط مصر »

قالت : « أما وقد علمت بعزم هذا الرجل فقد أصبح السكوت عنه مشاركة له فى القتل ، فلا بد من ردعه أو قتله »

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال : « وقد فاتنى أن أذكر أن جدى أوصانى بأن أسعى فى دفع السوء عن على »

فقالت : « وهذا ما أراه أنا أيضا لأن السكوت عنه جريمة ، ولكنى أرى أن يبقى امر هذه المؤامرة سرا لانطلع عليه احدا لئلا يسبقنا الى نيل الفخر برده ، وحتى لايسرب الخبر الى المتآمر فيستعجل أمره ويقتل عليا ونحن لم نعرفه بعد ولم نبدأ سعينا لاحباط عمله . ألا ترى هذا الرأى ياعبد الله ؟ »

فدهش عبد الله من نوادر الخواط ... اوعلم بزيارة سعيد للبابة لانكشف له سر الحيله ولكنه أخذ الامر على ظاهره فقال : « هذا هو الرأى الصواب ، وها أنذا شارع مع أخى سعيد فى السعى لردع ذلك الرجل »

قالت : « وماذا تنويان عمله ؟ »

قال سعيد : « ارى أن نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل فاذا عرفناه هان علينا ردعه »

فقالت قطام : « وما الفائدة من ذهابكما وأنتما لاتعرفان الرجل ولا تعلمان شيئا من أمره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى الفسطاط قبل الآن وهل تعرفان أحدا هناك ؟ »

قال عبد الله : « انى أعرف الفسطاط ولكننى لم أقم بها طويلا ولا أعرف أحدا من أهلها ولكننا نبذل جهدنا »

فتقدمت لبابة والاهتمام باد عليها وكانه قد فتح عليها برای سديد فقالت :
« اجلسوا وساهديكم الى طريق يهون عليكم كل صعب »

فجلسوا جميعا فقالت : « لا تسخروا برای عجوز مثلی فانی أعرف من الاسرار ما لا تعرفون . اعلموا ان فی مصر من مريدی الامام علی احزابا جمة اذعنوا لعمرو بن العاص مكرهين ، وهم صابرون علی ما أصابهم فی مقتل ابن ابی بكر ، وهم ينوون الانتقاض اذا اتيحت الفرصة لذلك »

قال عبد الله : « اهذا ما تفاخريننا بمعرفته ؟ انه لايجهله احدمن المسلمين ، وانی لاعلم ما هو اكثر منه »

قالت : « وما الذی تعلمه ؟ »

فابتسم عبد الله مستخفا وقال : « هناك امور كثيرة علمتهـا من جدنا ابی رحاب رحمه الله ، وقد اوصانی بالا اطلع عليها احدا »

فتوقعت لبـابة ان تطلع علی ماور ك علی سر ، وهی لم تقل ما قالته الا استدراجا له ، فهزت كتفها والتفتت الی قطام التفاتة ذات معنی ، ففهمت قطام مرادها

فابتدرت عبد الله قائلة فی دلال : « اذا كنت قد وقعت علی سر فاحفظه ولا تبح به لاحد من الخوارج مثلنا »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ، ونظر الی سعيد فرآه ينظر اليه كانه يتوقع منه ان يفشی السر لئلا تسیء قطام الظن بهما ، فقال معتذرا : « حاش لی يامولاتی . انی لا اعنی كتمان السر عنك بعد ان راينـاك مثلنـا حماسة للدفاع عن امير المؤمنين بل لقد كنت انت الداعية الی الدفاع عنه . ولكننی قلت ما قلته عفوا ، ولكی تثقی من حسن نيتی سابسط السر لك ولخالتی لبابة » . قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كانه يحـاذر ان يسـمعه رقيب ، او عدو ، فلما اصغی الجميع قال : « علمت من جدی رحمه الله ان فی الفسطاط جمهورا كبيرا لا يزالون علی دعوة الامام علی ، وهم متحدون قلبا وقالبا فی القيام بنصرته ، ولهم اجتماعات سرية يعقدونها للمفاوضة فی الوسائل المؤدية الی ذلك » . ولما بلغ الی هذا الحد تلعثم لسانه كان شيئا اوقفه عن

اتمام الحديث ، وارتبك وظهرت عليه البغنة ، كأنما ندم على ما فرط منه وعول على الامساك عن تتمة الحديث . فأدركت لبابة المحتالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهى تضحك : « أبعم به من سر عميق لم يطلع عليه أحد ، انى لا أراك زدت على قولى حرفا واحدا . الم اقل ان دعاة على باقون على دعوته ، فماذا زدت أنت على ذلك الا انهم يجتمعون سرا ؟ أم تراك ندمت على ثقتك بنا فبدأت بالحديث ثم قطعته ؟. وعلى كل حال لست ألومك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة »

. فقطعت قطام حديثها قائلة : « أتقولين انك لا تلومينه بينما أراك عاتبة عليه ؟. دعيه لئلا يظننا راغبين فى استطلاع سره لغرض لنا ونحن انما نريد بعض ما يريده عبد الله فلا حاجة لنا فى سره ، ولكننا نوصيه بأن يقوم بمؤازرة سعيد فيما أوصاه به جده ، وهذا يكفينا » . ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « لقد سرنى من رفيقك محافظته على السر حتى عن هذه الحقيرة التى بعد أن كانت اول الناقمين على على أصبحت من أكبر المدافعين عنه ، وهب أنه اراد افشاء ذلك السر فما نحن سامعون ما يقول ، اذ ربما وسوس لنا الشيطان فبحنا به للأعداء »

فوقع كلام قطام فى قلب سعيد موقع السهام ، وغلب عليه الحياء والتفت الى عبد الله وقال : « لا طاقة لى باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله ، قل ما تعلمه سواء أسمعته قطام ام لم تسمعه . ولن ابرح هذا المكان قبل أن أسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منه واصبح لا يدرى كيف يتخلص من حيائه وارتباكه . ولما رأى الحاح سعيد هان عليه التصريح بما يعرفه ولم ير فى ذلك لوما عليه فقال : « أراكم تتهمونني بذنب أنا برىء منه ، فانى لم أتوقف عن اتمام الحديث ضنا به على قطام بعد أن تحققت اخلاصها فى الدفاع عن على ؛ ولكننى صبرت ريثما أستجمع كلام جدى بحرفه ، فاذا أذنت قطام تلوته عليكم حالا »

قال سعيد : « قل ما علمته ، واذا سدت قطام اذنيها عن سماعه فانا أسمعه »

قال عبد الله : « أخبرنى ابو رحاب رحمه الله أن دعاة الامام على يجتمعون سرا فى معبد قديم خارج الفسطاط فى مكان يعرف بعين شمس ، وهم يتفاوضون فيه سرا فى يوم الجمعة من كل أسبوع »

فسرت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السر ، ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت : « أهذا هو السر العظيم ؟ انه باطل لا يقبله العقل ! »

فاغتاظ عبد الله من استخفافها وقال : «وما الدليل على بطلانه يا خالة ؟ »

قالت : « تقول ان دعاة على يجتمعون هناك كل يوم جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد ؟. وهب انه وسعهم فكيف يجتمع الالوف منهم كل اسبوع ولا يدرى بهم عمرو بن العاص وعيونه مبثوثة فى اطراف الفسطاط . فهل ذلك معقول ؟ »

فسر عبد الله لاستخفافها بكلامه وحسب افشاءه السر غير ذى اثر ، وود الوقوف عند هذا الحد ، فلم يرض سعيد بذلك بل اخذ على نفسه تفسير مقاله وهو يحسب انه آتى جديدا فقال : « ان عبد الله لا يعنى باجتماع دعاة على انهم يجتمعون جميعا كبارا وصغارا ولكنه يريد ان رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » . فضحكت لبابة وهمت بالرد عليه . فقطعت قطام كلامها قائلة : « يظهر يا خالة انك انما تريدين المزاح ، فقد طلبت من عبد الله افشاء سره ثم جعلت تجادلينه ، ونحن لايهمنا من الامر إلا الوصول الى الغاية المرجوة ، وهذا يكفى »

تم وجهت كلامها الى سعيد قائلة : « دع لبابة وتخريفها واسع فيما انت ساع فيه . سر الى دعاة على حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا اوصيك الاوصية واحدة ذكرتها فى بدء الحديث وهى ان تبقى هذا الأمر مكتوما فيما بيننا عن كل انسان ، حتى نعرف الخائن الذى يريد قتل الامام على ، فاذا عرفناه فاما ان نرجعه عن غيه او نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . اما اذا اشعنا خبره الآن فانه يبالغ فى التستر ، وربما اسرع فى انفاذ سهمه فيقتل أمير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثا . اما الآن فنحن على يقين من انه لا يُقدم على ذلك الا فى ١٧ رمضان ، ونحن لانزال بعيدين عنه .. وزد على ذلك أنك اذا حفظت هذا الامر مكتوما وتفردت فى البحث عنه كان الجزاء عظيما . ولا ارى فائدة من اطالة البحث . ولكى تتحقق من شدة رغبتى فى الاسراع ، ابدل عهدى ابدالا يسرك فبدلا من ان يكون اقترانا موقوفا على قتل الامام على فقد جعلته وقفا على انقاذه من القتل ، فاذا كنت تحبنى ، وهذا ما لا اشك فيه ، فبادر الى العمل ، وهذان عبد الله ولبابة شاهدان على ما اقول »

وكان سعيد بعد ان تغير وجه المسألة يرجو ان يقترن بقطام قبل ذهابه فى هذه المهمة . فلما سمع كلامها خجل من مراجعتها لئلا يقال انه اشد رغبة منه فى الدفاع عن على ، فانطلت الحيلة عليه ولم يسعه الا اجابتها فقال : « وهذا ما اطلبه انا ايضا لكى يتم عقد الزواج على يد الامام نفسه بحول الله »

وكان عبد الله يسمع هذا الحديث وقد خامره شك فى كلام قطام ، وندم

لتسرعه فى افشاء السر فظل صامتا لئلا يقع فيما يزيد ندمه ، وشعرلساعته بما أوتيته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيرا من اظهار ثقته بهـا فأخـذ يطرى غيرتها ويثنى على صدق مودتها فقال لها : « انى اعد اخى سعيدا من أسعد خلق الله لتوفيقه الى منلك ، وانى أدعو الله تعالى أن ينجح مقاصدنا ؛ وسكت هنيهة تم قال : « وقد أصبت فى حرصك على كتمان الأمر عن كل انسان ، بارك الله فيك » . والتفت الى لبابة فقال : « وأنت يا خالة نرجو أن تزودينا دائما بدعواتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة : « أما الرأى ففى الاسراع فى الامر ، فعليكما بالسفر حالا الى مصر ، وأطلب الى الله تعـالى أن يوفقكما ويسـهل طريقكما ، واذا أتيتما الفسطاط فاطلبا عين شمس فى يوم الجمعة ، ولن تعدما من أنصار أمير المؤمنين من يرشدكما الى الباغى »

وقضوا برهة فى أحاديث أخرى ، ثم انصرف عبد الله وسعيد ، وفى نفس أولهما شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها ، لما آنسه من اخلاصه لقطام وارتياحه الى وعودها ، ولكنه عول على انتهاز فرصة يستطيع بها التسلط على أفكاره

□

ولما خلت لبابة الى قطام بعد خروج سعيد وعبد الله قالت لها : « لقـد تمت لنا كل المعدات وآن يوم الانتقام على يد غير هذا الجبان. ان عليا سيقتل لا محالة ولقد احسنت بتطمينه ومسايرته . وأحسن ما رأيته من دهائك توصيته بالكتمان لأنه لو أطلع عليا على خبر المؤامرة لفشل أصحابها ونجا على من الموت »

فأجابت قطام قائلة : «ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز ، وأنا لم التمس منه الكتمان لهذا الغرض فقط ، ولكنى اردت أن يبقى خبر المؤامرة مكتوما عن كل انسـان لغرض آخر »

قالت : « وما ذلك فانى لم أفهم مرادك ؟ »

قالت : « أتكونين لبابة العجوز الماكرة ويخفى عليك مغزى كلامى ؟ ما الفائدة اذن من البحث عن مجتمع انصار على ؟ »

قالت : انى ما زلت أجهل ما ترمين به ، فما مرادك ؟ »

قالت : « مرادى أن أبعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها ، ليقبض على رجالها ، وسيكون سعيد وعبد الله بينهم ، فاما ان

يقتلهما أو يسجنهما ، فاذا قتلهما ظل أمر المؤامرة مكتوما عن كل انسان ، واذا سجنهما ظلا فى السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الأقل فيكون قد نفد السهم وانتقمت لأبى واخى ، ولا يهمنى بعد ذلك أمر »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همت بها وقبلتها وهى تقول : « بورك فيك يا بنية والله انك أبعد منى نظرا وأشد دهاء ، واذا أحياك الله الى سنى فان ابليس نفسه لن يقوى على مكرك ! » . قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة لم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان حادمها فحضر وكان جالسا فى مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه أحد ، فلما وقف بين يديها قالت له : « الم يقتل سيداك ظلما ؟ »

قال : « كيف لا ، وانى مطالب بدمهما ؟ »

قالت : « أتدرى لماذا دعوتك ؟ »

قال : « احسبك دعوتنى لنبعثى بى الى عمرو بن العاص فى الفسطاط لاخبره بأمر مجامع العلويين »

قالت : « نعم انى دعوتك لمثل هذا ، بورك فى سوادك . هذا وقت الحاجه اليك . ولكن لا تذكر اسمى لعمرو ، أنا واثقة بفطنتك فلا تخيب املى اذهب الى مصر أبلغ الرسالة ، وجئنى بمقتل هذين او سجنهما وانت حر لوجه الله »

فقطب ريحان حاجبيه وأجاب كأنه يعاتبها : « ألا تعلمين يا مولاتى انك تهينيننى بهذا الكلام من حيث تريدين سرورى . اتظيننى أوثر الحرية على الاستعباد لك . لقد قلت قولا فاسمحى لى أن أقول مثله . اننى ذاهب لانفاذ مرامك فاذا أنا فزت فيه رجوت أن تعدينى بألا تذكرى حرينى أبدا »

فضحكت قطام واظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت : «سر يا أسود . انك والله خير من الف أبيض »

أمام الفسطاط

الفسطاط مدينة عمرو بن العاص فى مصر بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتحه الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) انه لما فتح حصن بابل حيث دير مار جرجس الآن او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقر الصلح بينه وبين المقوقس ، نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج الدير بين النيل وجبل المقطم ، فأمر بتقويضها للرحيل فجاءه مبعوث بأن فى فسطاطه يماما معششا وتحته صغاره لاتستطيع الطيران ، فقال عمرو « لقد احتمت بجوارنا فأقروا الفسطاط حتى تطير فراخها » . فتركوا الفسطاط منصوبا حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله . ولما أكملوا عمارة المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط ، وهى أول مدينة بناها المسلمون فى مصر واتخذوها عاصمة ملكهم ، حتى بنيت القاهرة فى القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها

وكانت الفسطاط فى العام الاربعين للهجرة ، وهو العام الذى جاءها فيه سعيد ورفيقه عبد الله ، قد عمرت واقامت بها القبائل والافخاذ فى خطط وحارات بنيت لهم . وكانت مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان فيما يقرب من مصر العتيقة الآن . وأما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل ، وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم ، فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما اقيم عليه من البناء انما حدث بعد ذلك

وكان جامع عمرو الباقية آثاره الى اليوم مركز تلك المدينة ، وحوله أنشئت الخطط والازقة . وكان أقربها الى الجامع المذكور دار عمرو ، أو هما داران : الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون اولا ينزلون فى الخيام فلما بنى عمرو داريه اهتم الناس ببناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الاديار للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . وبنوا الخطط او الطرق على أسماء القبائل التى تألفت منها حملة ابن العاص فى ذلك الحين ومن نزح بعدهم ، واوجههم جميعا أهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم ، فبنوا لهم خطة سموها خطة أهل الراية ، ثم خطة مهرة ، وخطط لخم واللفيف والصدف من كندة وخولان ، فضلا عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين الذين حضروا الفتح واصلهم من بقايا جند (باذان) عامل كسرى على اليمن قبل